قادة فتح المغْرِب العَرَبي
من الصحابة

- عمرو بن العاص[1]
- عبـدالله بن سعد بن أبي سرح
- معاوية بن حُدَيْج السكوني
- عقبة بن نافع الفهري
- بسر بن أبي أرطاة العامري
- عبدالله بن الزبير بن العوّام
- رويفع بن ثابت الأنصاري
- زهير بن قيس البلوي

---

(١) سبقت ترجمته.

(٤٣٦) عبداللَّه بن سعد بن أبي سَرْح العامريّ رضي الله عنه فاتح إفريقية[١] وبطل موقعة ذات الصَّوَاري

هو عبداللَّه بن سعد بن أبي سَرْح، واسم أبي سرح الحسام ـ بن الحارث بن حُبَيِّب بن جَذِيمة بن مالك، ويقال: جَذِيمة بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك. أبو يحيى القرشي العامري[٢] الأمير قائد الجيوش.

كان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة، وكانت أمّه أشعريه؛ قاله الزبير بن بكار واسمها مهابة بنت جابر أرضعت عثمان بن عفان.

عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: كان ابن أبي سرح يكتب لرسول اللَّه ﷺ، فأزلّه الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به النبي ﷺ أن يُقتل فاستجار له عثمان.

وقال الدارقطني: ارتد، فأهدر النبي ﷺ دمه، ثم عاد مسلمًا، واستوهبه عثمان. أسلم قديمًا، قبل فتح مكة، وهاجر إلى المدينة، فهو من السابقين الأولين، وكان يكتب الوحي لرسول اللَّه ﷺ، ثم افتتن وخرج من المدينة إلى قريش مرتدا. فأهدر النبي ﷺ دمه.

ولما كان يوم فتح مكة آمن رسول اللَّه ﷺ الناس إلا أربعة نفر: عكرمة بن أبي جهل وعبداللَّه بن خَطَل، ومِقْيس بن صُبَابة، وعبداللَّه بن سعد بن أبي سرح.

عن مصعب بن سعد عن سعد قال: «لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان، فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال:

---

(١) إفريقية: أي تونس الآن.

(٢) طبقات ابن سعد (٤٩٦/٧)، نسب قريش (٤٣٣)، وطبقات خليفة ت (٧٠٨، ٢٧١٣)، وتاريخ بن عساكر (١٩/٢٩)، وأسد الغابة ت (٢٩٧٦)، والاستيعاب ت (١٥٧١)، والإصابة (٩٤/٤-٩٦) ت (٤٧٢٩)، وسير أعلام النبلاء (٣٣/٣) ت (٨)، والنجوم الزاهرة (٧٩/١)، وحسن المحاضرة (٥٧٩/١)، وشذرات الذهب (٤٤/١).

يا رسول اللَّه بايعْ عبدالله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما ندري يا رسول اللَّه ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك. قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»(١).

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أمَّن رسول اللَّه ﷺ يعني الناس يوم فتح مكة إلّا أربعة من الناس: عبدالعُزّى بن خَطَل، ومِقْيَس بن صُبَابة الكِناني، وعبداللَّه بن سعد بن أبي سَرْح، وسارة.

قال: فأما عبدالعُزّى فإنه قُتِل وهو آخذ بأستار الكعبة، قال: ونذر رجل من الأنصار أن يقتل عبداللَّه بن سعد إذا رآه قال: وكان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة، قال: فأتى به رسول اللَّه ﷺ ليشفع له، فلما بصر به الأنصاري اشتمل السيف ثم خرج في طلبه - يعني فوجده عند رسول اللَّه ﷺ فهاب قتله، فجاء الأنصاري يتردّد ويكره أن يقدم عليه لأنه في حلقة النبي ﷺ وبسط النبي ﷺ يده فبايعه، قال للأنصاري «انتظرتك أن توفي بنذرك»، قال: يا رسول اللَّه هبتك، أفلا أومضت.

قال: «إنه ليس لنبي أن يُومض»(٢).

قال ابن يونس: كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص، وكان فارس بني عامر المعدود فيهم. غزا إفريقية(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٢/١٧٠)، والحاكم (٣/٤٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (١/٢١٦، ٢١٧)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٢٣)، وصحيح الجامع رقم (٢٤٢٢).

(٢) أخرجه ابن عساكر (٢٩/٢٩) ومتن الحديث ثابت، وورد له شاهد بسند حسن أخرجه أبو داود (٣١٩٤)، وأحمد (٣/١٥١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٤٠٨)، وحسنه في السلسلة الصحيحة رقم (١٧٢٣) - (٤/٣٠٢).

(٣) فتوح مصر لابن عبدالحكم ص (١٨٣)، وتاريخ دمشق لابن أبي زرعة (١/١٨٥، ٢٩٠) لأبي زرعة.

❑ جهاده:

١- في مصر:

كان عبداللَّه مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، ولما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبداللَّه معه قائد للميمنة منذ توجه من «قيسارية» إلى أن فرغ من حروبه[١]، فشهد فتح مصر وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته[٢] وفي حروبه هناك كلها[٣].

قال الليث: وكان ابن أبي سرح على الصعيد في زمن عمر، ثم ضمّ إليه عثمان مصر كلها، وكان محمودًا في ولايته، وغزا ثلاث غزوات: إفريقية وذات الصواري والأساور[٤] وعقد عثمان بن عفان لعبداللَّه على مصر كلها مضافا للصعيد غيره[٥]، وعزل عمرو بن العاص عن مصر، وكان ذلك سنة خمس وعشرين الهجرية[٦].

٢- فتحه إفريقية سنة سبع وعشرين الهجرية:

قال ابن الأثير في أحداث سنة ٢٥هـ: «في هذه السنة سيّر عمرو بن العاص عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف إفريقية غازيًا بأمر عثمان، وكان عبداللَّه من جند مصر، فلما سار إليها أمدّه عمرو بالجنود فغنم هو وجنده، فلما عاد عبداللَّه كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية فأذن له في ذلك[٧].

قال البلاذري: «لما ولى عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح مصر والمغرب بعث

---

(١) فتح مصر والمغرب ص (٨٥).
(٢) الإصابة (٤/٩٥).
(٣) أسد الغابة (٣/٢٦١).
(٤) الإصابة (٤/٩٦).
(٥) النجوم الزاهرة (١/٦٦).
(٦) النجوم الزاهرة (١/٧٩).
(٧) الكامل لابن الأثير (٢/٤٨٠).

المسلمين في جرائد خيل فأصابوا من أطراف أفريقية وغنموا. وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه متوقفًا عن غزوها ثم إنه عزم على ذلك بعد أن استشار فيه، وكتب إلى عبدالله في سنة سبع وعشرين، ويقال في سنة ثمان وعشرين، ويُقال في سنه تسع وعشرين يأمره بغزوها وأمدّه بجيش عظيم فيه معبد بن العباس بن عبدالمطلب، ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، والحارث بن الحكم أخوه، وعبدالله بن الزبير بن العوّام، والمسور بن مخرمة بن نوفل وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وعاصم بن عمر، وعبيد الله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وبسر بن أبي أرطاة العامري، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي الشاعر، وبها توفي.

وخرج في هذه الغزاة ممن حول المدينة من العرب خلق كثير(١).

وقال خليفة بن خياط في أحداث سنة سبع وعشرين: «غزا ابن أبي سرح إفريقية ومعه العبادلة: عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن الزبير بن العوّام(٢)، فلقى جُرجير في مئتي ألف بسُبيطلة(٣) على سبعين ميلا من القيروان، فقُتِل جرجير وسبوا وغنموا»(٤). وسمى هذا الجيش «جيش العبادلة»، وكان في هذا الجيش أيضًا الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ.

وقال ابن الأثير: «إن عبدالله بن سعد لمّا ولي أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها، واستشار عثمان مَن عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العسكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبدالله بن عباس وغيره. فسار بهم عبدالله بن سعد إلى إفريقية،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص (٢٢٧، ٢٢٨).
(٢) ومن العبادلة ممن حضر هذا الفتح عبدالله بن جعفر ـ انظر ابن خلدون (١٢٨/٢).
(٣) مدينة من مدن تونس.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط ص (١٥٩).

فلما وصلوا إلى برقة لقيهم «عقبة بن نافع» فيمن معه من المسلمين وكانوا بها، وساروا إلى طرابلس الغرب، فنهبوا مَن عندها من الروم، وسار نحو إفريقية، وبث السرايا في كل ناحية، وكان ملكهم اسمه «جرجير» وملكه من طرابلس إلى طنجة [(١)]، وكان هرقل ملك الروم قد ولّاه إفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة، فلما بلغه خبر المسلمين تجهّز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مئة ألف وعشرين ألف فارس، والتقي هو والمسلمون بمكان ـ يدعى «بعقوبة» [(٢)] ـ بينه وبين «سُبَيْطلة» يوم وليلة، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم، وراسله عبدالله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبّر عن قبول أحدهما، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسيّر عبدالله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مُجِدًّا، ووصل إليهم، وأقام معهم، ولمّا وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين، فسأل «جرجير» عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتّ ذلك في عضده.

ورأى عبدالله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أذّن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامة، وشهد القتال من الغد، فلم ير ابن أبي سرح معهم فسأل عنه، فقيل إنه سمع منادي جرجير يقول: «من قتل عبدالله بن سعد فله مئة ألف دينار وأزوِّجه ابنتي» وهو يخاف، فحضر عنده وقال له: تأمر مناديًا ينادى: «من أتاني برأس جرجير نفّلته مئة ألف وزوّجته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار «جرجير» يخاف أشد من عبدالله».

ثم إن عبدالله بن الزبير قال لعبدالله بن سعد: إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أنْ نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهّبين ونقاتل نحن

---

(١) طنجة: مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب.

(٢) البلاذري ص (٢٢٨).

والروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم، ورجع المسلمون ركب مَنْ كان في الخيام مِن المسلمين، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غِرّة، فلعلّ اللّه ينصرنا عليهم. فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبداللّه ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مُسرَجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديدا، فلما أذّن الظهر هَمَّ الروم بالانصراف على العادة فلم يُمكّنهم ابن الزبير وألحَّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكلٌّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تَعِبًا. فعند ذلك أخذ عبداللّه بن الزبير مَنْ كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا فلم يتمكن الروم من لِبْس سلاحهم حتى غَشِيَهم المسلمون، وقُتِل جرجير قتله ابن الزبير، وانهزم الروم، وقُتِل منهم مقتلة عظيمة، وأُخِذت ابنة الملك جرجير سَبِيّة، ونازل عبداللّه بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينار.

ولما فتح عبداللّه مدينة «سبيطلة»(١) بثَّ جيوشه في البلاد فبلغت «قفصة»(٢) فسبوا وغنموا، وسيّر عسكرا إلى حصن «الأجم»(٣)، وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالأمان، فصالحه أهل إفريقية على ألفى ألف وخمس مئة ألف دينار، ونفل عبداللّه بن الزبير ابنة الملك وأرسله إلى عثمان بالبشارة. وقيل: إن ابنة الملك وقعت لرجلٍ من الأنصار فأركبها بعيرًا، وارتجز بها يقول:

يا ابنة جرجير تمشي عقبتك ... إنّ عليك بالحجاز ربّتك

لتحملن من قباء قربتك

(١) مدينة من مدن إفريقية (تونس) بينها وبين القيروان سبعون ميلًا.

(٢) بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام.

(٣) الأجم ـ العجم ـ الأعجام ـ كانت مركزًا حربيًا هامًا طوال العصر البيزنطي.

«ثم إن عبداللَّه بن سعد عاد من إفريقية إلى مصر، وكان مقامه بإفريقية سنة وثلاثة أشهر ولم يفقد المسلمون إلا ثلاثة نفر قُتِل منهم ابو ذؤيب الهذلي الشاعر، فدفن هناك»[(١)].

قال ابن حجر عن عبداللَّه بن سعد: «كانت ولايته مصر سنة خمس وعشرين؛ وكان فتح إفريقية من أعظم الفتوح؛ بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف دينار، وذلك سنة ثمان. وأما الأساود فكان فتحها سنة إحدى وثلاثين بالنوبة، وهو هادنهم الهدنة الباقية بعده»[(٢)].

وقال أيضًا عنه: «وله مواقف محمودة في الفتوح»[(٣)].

وقال الليث بن سعد: «كانت غزوة عبداللَّه بن سعد إفريقية لسنة سبع وعشرين، ثم كانت الأساودة أميرهم عبداللَّه بن سعد لسنة إحدى وثلاثين، ثم كانت ذو الصواري أميرهم عبداللَّه بن سعد لسنة أربع وثلاثين»[(٤)].

وفي رواية عن فتح إفريقية: «أن عبداللَّه بث السرايا ففرّقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبداللَّه بن سعد أن يأخذ منهم ثلاث مئة قنطار من ذهب على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك»[(٥)].

ومعنى ذلك أن هؤلاء دفعوا هذا المبلغ ليكفّ المسلمون أيديهم عنهم، وتتوقف الحرب ويسود السلام بين أهل إفريقية من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى.

فاجتمع أهل إفريقية على الطاعة والإسلام وحسن إسلامهم[(٦)].

---

(١) «الكامل» (٢/٤٨٢- ٤٨٤).
(٢) الإصابة (٤/٩٦).
(٣) الإصابة (٤/٩٥).
(٤) تاريخ مدينة دمشق (٢٩/٣٩).
(٥) البلاذري ص (٢٢٨).
(٦) النجوم الزاهرة (١/٨٠).

لقد افتتح عبدالله بن سعد إفريقية سهلها وجبلها[١]، وفتح الله على يديه فتحًا عظيمًا[٢]، وأذلّت تلك الواقعة الروم بإفريقية وأصابهم رعب شديد[٣].

- **غزو إفريقية ثانية سنة ثلاث وثلاين هجرية:**

في سنة ثلاث وثلاثين هجرية، أعاد عبدالله الكرّة على إفريقية حين نقض أهلها العهد، فانتصر عليهم، وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرّهم على الإسلام والجزية[٤] وكان فتح إفريقية فتحًا مستدامًا ولم يكن غارة من الغارات.

- **ـ فتح قبرص سنة ٢٨هـ:**

في سنة ٢٨هـ سار معاوية بن أبي سفيان لفتح قبرص، وسار معه المسلمون من الشام إلى قبرص. وسار إليها عبدالله بن سعد من مصر، فاجتمعوا عليها؛ فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة وكان لعبدالله بن سعد فضل كبير في فتحها[٥].

- **غزو الأساود «بلاد النوبة» سنة إحدى وثلاثين الهجرية:**

«لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى التي حولها الخيل ليطأهم فبعث عقبة بن نافع الفهري ـ وكان نافع أخا العاص لأمه ـ فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم فلقى المسلمون بالنوبة قتالًا شديدا، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جُرِح عامتهم فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة فسموا رماة الحدق، فلم يزالوا على ذلك حتى ولي مصر عبدالله بن سعد ابن أبي سرح فسألوه الصلح والموادعة فأجابهم إلى ذلك على غير جزية لكن على

---

(١) النجوم الزاهرة (٧٩/١).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢٧٠/١).
(٣) البيان المغرب (٨/١).
(٤) النجوم الزاهرة (٨٠/١).
(٥) تاريخ الطبري (٣١٨/٣).

هدية ثلاث مئة رأس في كل سنة، وعلى أن يهدي المسلمون إليهم طعامًا بقدر ذلك.

قال شيخ من حمير شهد قتال النوبة: شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب فلم أر قومًا أَحَدُّ في حرب منهم، لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحبُّ أن أضع سهمي منك، فربما عبث الفتى منا فقال: في مكان كذا فلا يخطئه، كانوا يُكثرون الرمي بالنبل فما يكاد يرى من نبلهم في الأرض شيء فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم رمونا حتى ذهبت الأعين فعدت مئة وخمسين عينًا مفقودة، فقلنا: ما لها ولاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل وإن نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو ولم يزل يكالبهم حتى نُزِع، وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح فصالحهم.

وقال الليث بن سعد: إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلونا وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعامًا(١).

لقد قاتل الأساود من أهل النوبة عبدالله بن سعد بن أبي سرح قتالًا شديدًا، فاصيبت يومئذ عيون كثير من المسلمين، فقال الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم «دُمْقُلَة»(٢) والخيل تعدو بالدروع مثقلة

فسأل أهل النوبة عبدالله بن سعد الهدنة، فهادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم، وصالحهم على أنهم لا يغزونهم، ولا يغزو النوبة المسلمين، وأن النوبة يؤدون كل سنة إلى المسلمين كمية من السبي، وأن المسلمين يؤدون إليهم كمية من القمح والعدس في كل سنة مقابل السبي، وعقد لأهل «مقرة»(٣) بعد دخول جيش المسلمين «دنقلة» عقدًا يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الإطمئنان إلى

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص (٢٣٨، ٢٣٩).
(٢) دمقلة: مدينة كبيرة في بلاد النوبة.
(٣) مقرة: مدينة بالنوبة.

حدودهم الجنوبية، ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية. وقد اختلط العرب بالنوبة والبجة واعتنق كثير منهم الإسلام.

وفي «جوامع السيرة» لابن حزم: «صالحهم عبدالله بن سعد على رقيق يؤدونه، وبنى على باب مدينة ملكهم مسجدًا، وشرط عليهم حفظه أبدا، ثم أسلمت البجة كلهم»(١).

❑ غزوة «ذات الصواري» وبطولة عبدالله بن سعد الفائقة:

في سنة أربع وثلاثين هجرية غزا عبدالله غزوة «ذات الصواري» في البحر من ناحية الإسكندرية(٢)، فلقيه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام، فخرجوا في خمس مئة مركب أو ست مئة(٣)، والمسلمون في مئتي مركب(٤).

وقام ابن أبي السرح بين ظهراني الناس فقال: «بلغني أن ابن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب، فأشيروا عليّ!» فما كلمّه رجل من المسلمين. وجلس عبدالله قليلا لترجع إلى سامعيه أفئدتهم، ثم قام الثانية وكلمّهم، فما كلّمه أحد. وجلس ثم قام الثالثة فقال: «إنه لم يبق شيء، فأشيروا عليّ!»، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوّعًا مع عبدالله بن سعد فقال: «أيها الأمير! إن الله جل ثناؤه يقول ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فقال عبدالله «اركبوا باسم الله» فركبوا. وقدم أهل الشام عليهم معاوية بن أبي سفيان وعلى البحر عبدالله بن سعد، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم،

---

(١) فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٤٤٥).
(٢) النجوم الزاهرة (١/٨٠).
(٣) الطبري (٣/٣٤٠)، وفي النجوم الزاهرة (١/٨٠) أن عدد مراكب الروم كان ألف مركب.
(٤) النجوم الزاهرة (١/٨٠).

فأرسى المسلمون والروم، وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم! فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرءون القرآن ويُصَلّون.

وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا، فقرّبوا سفنهم وقرّب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها إلى بعض، وصفّ عبدالله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن والصبر.

اقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر، فقُتِل من المسلمين بشر كثير، وقُتِل من الروم ما لا يحصى، وصبر المسلمون يومئذ صبرًا لم يصبروا مثله في موطن قط، فجُرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا ولم ينج منهم إلا الشريد[(١)].

وفي هذه المعركة بالذات تعرّضت حياة عبدالله لخطر داهم، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجرّ مركب عبدالله إليهم، لولا أن قيض الله أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف فقطعها، وبذلك نجا عبدالله من الموت أو الأسر.

لقد أظهر عبدالله في هذه المعركة «ذات الصواري»[(٢)] بطولة فائقة، تلك المعركة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام.

❑ **القائد:**

«لقد كان عبدالله فارس بني عامر بن لؤي، وقد أثبت شجاعة فائقة مع معاركه، خاصة في معركة «ذات الصواري»، وكان قديرًا على وضع الخطط العسكرية المناسبة، وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها: ينجز تحشيد قواته، ويكمل قضاياها الإدارية، ويرسل العيون والأرصاد

---

(١) الطبري (٣/٣٤٠- ٣٤١)، وابن خلدون (٢/١٣٠).

(٢) سُمّيت هذه المعركة بذات الصواري، لكثرة صواري المراكب واجتماعها، انظر النجوم الزاهرة (١/ ٨٠).

لتزويده بأنباء العدو المفَصَّلة، كل ذلك يساعده على وضع خُطةٌ مثلى تؤمِّن له النصر المبين.

وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثنائها ولا يأنف أبدا من الانصياع للرأي الصائب بكل رحابة صدر، بل كان يشجِّع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبِّقه فورًان وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التي لا تُؤثر عليها تقوّلات الناس.

والظاهر في سير معاركه التي خاضها، أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال غازيا على أن يكون في القصور واليا. فقد شهد فتح أرض الشام ومصر وفتوحات عمرو بن العاص كافة قبل أن يتولى هو مصر، فلما أصبح واليًا عليها بعد عمرو بن العاص، أمضى سنتي ست وعشرين وسبع وعشرين في فتح إفريقية، وأمضى سنة ثمان وعشرين في فتح «قبرص»، وأمضى سنة إحدى وثلاثين في النوبة، وسنة ثلاث وثلاثين في استعادة فتح إفريقية، وأمضى سنة أربع وثلاثين في «ذات الصواري». أي أن عبدالله قضى سبع سنوات من مدة حكمه غازيًا، وقضى ثلاث سنوات فقط بين أهله، ولا بد أن هذه السنوات الثلاثة قضاها هي الأخرى أو قضى أكثرها على أقل تقدير لإنجاز استعداداته للقتال، إذ أن الاستعدادات لخوض معركة ما لا تقلّ أهمية عن خطة خوض المعركة، وكل نقص في الاستعدادات يؤدي إلى الفشل.

إن حرص عبدالله على قيادة رجاله بنفسه، ورغبته في مشاركتهم بتحمّل أعباء القتال، وقضائه أكثر مدة حكمه بعيدًا عن أهله وعن مأمنه غازيا، كل ذلك يدلُّ على أنه طراز نادر من القادة الممتازين.

وكان قائدا «تعرضيا» يهتم كثيرا بتطبيق مبدأ «المباغتة» أهم مبادئ الحرب. لقد كان عبدالله قائدا ممتازًا حَرِيًّا بمنصبه القياديّ، وأعماله الباهرة في الفتح أدلة واضحة على أنه من أبرز قادة الفتح الإسلامي قابلية ومقدرة وكفاية وتضحية لقد

كان عبداللَّه قائدًا ممتازًا، وواليًا قديرًا وفاتحًا عظيمًا ومؤمنًا حقًا، وكانت له مزايا إنسانية عالية وأعمال مشرفة، وكل قول يخالف ذلك لا يستند على مصادر التاريخ الصحيح.

يذكر التاريخ لابن سعد فتحه لتونس وشرقي الجزائر، وقبرص والنوبة، ونشره الإسلام في ربوعها، ويذكر له معاركه الحربية بالتقدير والإعجاب خاصة «ذات الصواري» ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهدا لإعلاء كلمة الله[١].

اعتزل رضي الله عنه الفتن، ولم يشارك فيما جرى بين علي ومعاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، وختم اللَّه بخاتمة الحسنى.. ويا لحسنها من خاتمة سنة ست وثلاثين بعسقلان.

روى البغوي بإسناد صحيح عن يزيد بن أبي حبيب، قال: خرج ابن أبي سرح إلى الرّملة، فلما كان عند الصبح قال: اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صَلى فسلّم عن يمينه ثم ذهب يسلم عن يساره، فقبض اللَّه روحه يرحمه الله[٢].

عن يزيد بن أبي حبيب قال: لما حضرت عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح الوفاة وهو بالرملة، وكان خرج إليها فارًّا من الفتنة، فجعل يقول لهم من الليل: أصبحتم؟ فيقولون: لا، فلما كان عند الصبح قال: يا هشام بن كنانة، إني لأجد برد الصبح، فانظر، ثم قال: اللهم اجعل خاتمة عملي الصبح، فتوضأ ثم صَلى فقرأ في أول ركعة بأم القرآن والعاديات، وفي الأخرى بأم القرآن وسورة، فسلّم عن يمينه وذهب يُسلّم عن يساره، فقبض اللَّه روحه[٣] رضي الله عنه.

* * *

---

(١) انظر: قادة فتح المغرب العربي ص (٧٣، ٧٤).
(٢) الإصابة (٤/٩٦).
(٣) تاريخ دمشق (٢٩/٤٣).

(٤٣٧) معاوية بن حُدَيْج السكوني[١] رضي الله عنه
فاتح «بنزرت»[٢] و«سوسة»[٣] وجَلُولاء[٤]

هو مُعاوية بن حُدَيْج بن جفنة بن قُتَيْرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشْرَس بن شبيب بن السَّكون بن أشرس بن كِندة أبو عبدالرحمن، وأبو نعيم الكِنْدِي التُجيبي رضي الله عنه، الأمير، قائد الكتائب.

وكل تجيبي سكوني، وكل سكوني كِندي، وأمه هي كبشة بنت معدي كرب الشاعرة[٥].

له صحبة ورواية قليلة عن النبي ﷺ قاله ابن سعد، وابن عساكر، والذهبي، وابن يونس. وقال الأثرم عن أحمد: ليست له صحبة[٦]. والرأي الأقوى أنه صحابي قال الذهبي «ولي إمرة مصر لمعاوية وغزو المغرب، وشهد موقعة اليرموك»[٧].

وقال ابن حجر في «الإصابة» «وذكره ابن سعد فيمن ولي مصر من الصحابة. وقال ابن يونس في تاريخه: يُكنى أبا نُعيم، وفد على رسول اللَّه ﷺ، وشهد فتح

(١) الإصابة (١١٦/٦) ت (٨٠٨٠)، وسير أعلام النبلاء (٣٧/٣)، وتاريخ دمشق (١٥/٥٩)، وأسد الغابة، والبداية والنهاية (٦٠/٨)، وتهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠)، والنجوم الزاهرة (١٥١/١)، وحسن المحاضرة (٢٣٧/١)، وشذرات الذهب (٥٨/١).
(٢) بنزرت: مدينة بتونس بينها وبين مدينة تونس يومان، وهي مشرفة على البحر.
(٣) سوسة: مدينة يحيط بها البحر في جنوبي شرقي تونس.
(٤) جَلُولاء: مدينة مشهورة بإفريقية (تونس) بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلا. وهي الآن خراب يُعرف مكانها بعين جلولاء.
(٥) الأعلام لخير الدين الزركلي (١٧١/٨).
(٦) الإصابة (١١٧/٦).
(٧) سير أعلام النبلاء (٣٧/٣).

مصر، ثم كان الوافد على عمر بفتح الإسكندرية، ذهبت عينه في غزوة النوبة[(١)] مع ابن أبي سرح، وإلى غزو المغرب مرارًا، آخرها سنة خمسين، ومات سنة اثنتين وخمسين»[(٢)].

وفد على رسول اللَّه ﷺ، وهاجر إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه[(٣)]، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الذهبي: ذكر الجمهور أن له صحبة، وقال: قد كان ابن حُدَيْج مَلِكًا مُطاعًا من أشراف كِندة[(٤)]. وقال ابن عساكر: من سادات السكون في الإسلام[(٥)].

❑ جهاده

● (أ) فتح مصر

شهد رضي الله عنه اليرموك، وشهد فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان رسوله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح الإسكندرية، وقد ذكر معاوية بن حُدَيْج قصة وفادته على عمر بن الخطاب فقال:

«بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة في الظهيرة، فأنخت راحلتي بباب المسجد، فبينما أنا قاعد فيه إذْ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحبًا عليّ ثياب السفر، فأتتني وقالت: مَن أنت؟ قلت: أنا معاوية بن حُدَيج رسول عمرو بن العاص.. فانصرفت عني ثم أقبلت تشتد أسمع حفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني، فقالت: قم فأجب! أمير المؤمنين يدعوك.. فتبعتها، فلما دخلتُ فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداء

---

(١) النُّوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر.
(٢) الإصابة (٦/١١٦- ١١٧).
(٣) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٣).
(٤) السير (٣/٤٠).
(٥) تاريخ دمشق (٥٩/١٨).

بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟ قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح اللَّه الإسكندرية.. فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن: أَذِّن في الناس: الصلاة جامعة.. فاجتمع الناس، ثم قال لي: قم فاخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم، ثم صَلى ودخل منزله واستقبل القبلة، فدعا بدعوات ثم جلس، فقال: يا جارية! هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال: كُلْ! فأكلت على حياء، ثم قال: يا جارية! هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال: كل! فأكلت على حياء، ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

فقلتُ: قلتُ أمير المؤمنين قائل(١)! فقال: لبئس ما ظننت! لئن نمتُ النهار لأضيعنّ الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعنّ نفسي، فكيف بالنوم من هذيْن يا معاوية؟!(٢)

ووفادة معاوية دليل على ثقة عمرو به واعتماده عليه، وأنه كان شخصية لامعة في جيش المسلمين الذي فتح مصر في جهاده وعقله، كما أنه دليل على أنه كان مقبولًا عند عمر بن الخطاب.

● **ب ـ في بلاد النوبة:**

وفي سنة إحدى وثلاثين الهجرية شهد ابن حُدّيج فتح النوبة تحت لواء عبداللَّه بن سعد بن أبي سرْح، فذهبت عينه يوم «دمْقُلة» من بلاد النوبة(٣)، فأصبح أعور(٤).

❑ **غزو إفريقية:**

قال ابن عساكر: ولى معاوية بن حُدّيْج الإِمْرَة على غزو المغرب سنة أربع

---

(١) القيلولة: هي النوم في الظهيرة. ورجل قائل، وقوم قَيْل وقُيَّل.

(٢) فتح مصر والمغرب ص (١١٩، ١٢٠).

(٣) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٤).

(٤) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ـ للدّباغ (عبدالرحمن ومحمد بن عبدالله الأنصاري) ـ تونس، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٥٩/٢٠)، والإصابة (٦/١١٧).

وثلاثين وسنة أربعين وسنة خمسين(١).

● **غزا ابن حُدَيج إفريقية ثلاث مرات:**

الأُولى: سنة أربع وثلاثين الهجرية في خلافة عثمان بن عفان - وقيل سنة ثلاث وثلاثين(٢) في خلافة عثمان بن عفان، حين كان عبداللَّه بن سعد بن أبي سَرْح واليًا على مصر، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ففتح مناطق شاسعة، وغنم غنائم عظيمة، واتخذ قيروانا عند «القرن»(٣)، ولم يزل فيها حتى خرج إلى مصر.

❏ **فتح مدينة (بنْزَرت):**

وغزا معاوية إفريقية سنة إحدى وأربعين الهجرية، ففتح مدينة «بنزّرت»، وكان معه عبدالملك بن مروان(٤).

❏ **انتقاض إفريقية وفتحها ثانية:**

كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدي إليه كل ملك من ملوك النصارى الخراج من إفريقية، ومصر، والأندلس، وغير ذلك، فلما صالح أهل إفريقية عبداللَّه بن سعد أرسل هرقل إلى أهلها بِطْرِيقًا له وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون، فنزل البطريق في «قُرْطاجَنَّة» وجمع أهل إفريقية وأخبرهم بما أمره الملك فأبوْا عليه، وقالوا: نحن نؤدي ما كان يُؤخذ منا، وقد كان ينبغي له أن يُسامِحَنا لما ناله المسلمون منا، وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطْريق بعد فتن كثيرة، فسار إلى الشام وبه معاوية وقد استقرّ له الأمر بعد قتل عَليّ، فوصف له إفريقية، وزين له فتحها واصفًا له خيراتها وثراءها، ودَلّه على

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٩/٢٠).

(٢) انظر «الكامل» لابن الأثير (٣/٣٠).

(٣) القرن: موضع مدينة القيروان.

(٤) معالم الإيمان (١/١١٤). أما في فتوح مصر والمغرب (٢٦١) فيذكر أنه غزاها سنة أربعين، والأول أصح لأن معاوية استقر ملكه سنة إحدى وأربعين الهجرية.

عورات الروم، فبعث معاوية بن حُدَيْج لفتحها سنة خمس وأربعين الهجرية[١]، وجههه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل[٢]، معهم عبدالله بن عمر بن الخطّاب، وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبدالملك ابن مروان. فلما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الروميّ ومضى ابن حُدَيْج فوصل إلى إفريقية وهي نار تضطرم وكان معه عسكر عظيم فنزل على (قمونية)[٣] وهي قيروان إفريقية فلقيه البطريق «وهو ملك (سُبَيْطلة)[٤] ومعه ثلاثين ألف مقاتل، ولم تغن قوات الروم شيئًا، وهزمهم معاوية عند حصن (الأَجم» ثم بثّ السرايا في البلاد، وبعث عبدالله بن الزبير إلى «سوسة» ففتحها[٥] وبعث رُوَيْفع بن ثابت الأنصاري بحرًا إلى (جَرْبَة)[٦] ففتحها، ثم عاد أدراجه إلى طرابلس الغرب التي كان أميرا عليها.

وبعث عبدالله بن مروان إلى «جلولاء» ففتحها[٧].

واستقر معاوية في جبل القرن[٨]، وجعله مقرًا له، فبقى هناك ثلاث سنين[٩]، فبنى بناحية القرن مساكن سماها «قيروان» واحتفر بها آبارا تسمى آبار حديج وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلّى الجنائز[١٠].

---

(١) البيان المغرب (١/١٧)، والاستقصا (١/٦٩)، والكامل لابن الأثير (٢/٤٨٥).

(٢) الاستقصا (١/٦٩).

(٣) قمونية: مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان.

(٤) سبيطلة: مدينة تبعد عن القيروان سبعون ميلًا، وعن قفصة مرحلة واحدة، وكانت عاصمة إفريقية في القديم.

(٥) الاستقصا (١/٦٩).

(٦) جربة: جزيرة في تونس قرب قابس كان يسكنها البربر.

(٧) البيان المغرب (١٠)، والاستقصا (١/٦٩).

(٨) جبل بإفريقية، وهو الجبل المعروف اليوم بجبل «وسلات».

(٩) رياض النفوس (١/١٩).

(١٠) معالم الإيمان (١/١١٣- ١١٤).

لقد غزا معاوية إفريقية مرارًا كثيرة كان آخرها سنة خمسين الهجرية[١]، ولكن المؤرخين اقتصروا على ذكر ثلاث منها، هي أهم غزواته.

وعاد معاوية بعد ذلك إلى مصر بعد أن خَلدّ آثارًا حسنة في إفريقية[٢]، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية[٣].

❑ في البحر:

● أ ـ غزوة لجزيرة صِقلِيّة[٤]:

قال البلاذري: «غزا معاوية بن حُديج الكِنْدي أيام معاوية بن أبي سفيان صقلية، وكان أول من غزاها، ولم تزل تُغزى بعد ذلك»[٥].

بعث معاوية بن حُدَيْج عبدالله بن قيس بن مخلد إلى صقلية فأصاب أصنامًا من ذهب وفضة مكللة بجوهر[٦].

وقال الواقدي: «سبى عبدالله بن قيس بن مخلد الدزقي صقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر، فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية إلى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك فيثمن بها»[٧].

وفي «البيان المغرب»: «أغزى معاوية جيشًا في البحر إلى صقلية في مئتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهرًا ثم انصرفوا..»[٨]، فكانت هذه الغزوة غارة ولم تكن فتحًا مستديمًا. وكان ذلك سنة ست وثلاثين الهجرية.

---

(١) تهذيب التهذيب (١٠/٢٠٤)، والإصابة (٦/١١٧).
(٢) الاستقصا (١/٦٩).
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص (٢٣٧).
(٤) صقلية: من جزر البحر الأبيض المتوسط.
(٥) «فتوح البلدان» للبلاذري ص (٢٣٧).
(٦) البيان المغرب (١/١٢).
(٧) فتوح البلدان للبلاذري ص (٢٣٧).
(٨) البيان المغرب (١/١٠) لابن عذاري المراكشي.

- **ب: وفي سنة تسع وأربعين الهجرية وجّه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر(١).**

❑ الإنسان:

كان معاوية بن حُديج من الثقات، وكان محله بمصر عظيمًا(٢)، عاقلا حازمًا واسع العِلم مقدامًا، وكان إداريًا حازمًا.

وكان عثمانيًا، وسبيلنا الكفّ والاستغفار للصحابة، ولا نحبُّ ما شجر بينهم، ونعوذ باللَّه منه(٣).

❑ القائد:

كان معاوية من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنّكين، ومن رجالات الفتوح الكبار وكان من ضباط ركن عمرو بن العاص في فتح مصر، ومن ضباط ركن عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح في فتح إفريقية والنُّوبة، فلما تولى القيادة كان خبيرًا بالمغرب عارفًا لشئونه وطبيعة أرضه ونقاط الضعف في أهله، وخبرة معاوية هذه سهّلت له فتح كثير من بلاد المغرب.

والذي يتتبّع قصة جهاده بإمعان، يجد أن معاوية كان يهوى الجهاد فكان يفضِّل دائمًا أن يكون غازيًا في ساحات الوغى على أن يكون واليًا في باحات القصور.

لقد كان جنديًا بالطبع، وكان من أسود العرب(٤).

سألت أم المؤمنين عائشة يوما أحد رجال معاوية ممن غزا معه فأثنى عليه خيرًا وقال: يا أمه، خير أمير، وقال: ما مرض منا أحدٌ إلا عاده، وإن هلك بعيرٌ أخلف

---

(١) المصدر السابق (١٣/١)، (١٩/١).
(٢) البداية والنهاية (٦١/٨)، وأسد الغابة.
(٣) سير أعلام النبلاء (٣٩/٣).
(٤) الولاة والقضاة للكندي ص (٢١).

بعيرا، وإن هلك فرس أخلف فرسًا، وإن أَبق[١] خادم أخلف خادما، فقالت: استغفر الله، اللهم اغفر لي إنْ كنت أبغضه؛ إنه قتل أخي، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم من وَليَ من أمر أمتي شيئًا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفقْ به»[٢][٣]، وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه على راحتهم وإرضائهم وإعطائهم ما يستحقون.

لقد كان معاوية شجاعًا مقدامًا، ذا شخصية قوية نافذة، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة، يتحمّل المسؤولية ولا يتهرب منها، ذا إرادة قوية ثابتة، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها، ويعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم، يثق برجاله ويثقون به ويبادلونه حبًا بحب وتقديرًا بتقدير، له تجربة طويلة في الحرب وماض ناصع في الجهاد. لقد كان معاوية قائدًا ممتازًا.

قضى حياته كلها مجاهدًا في سبيل الله في البر والبحر على حَدٍّ سواء.

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يُحصى من البربر، ونشر لغة القرآن بينهم.

ويُذكر له أنه فتح بلادًا شاسعة من شمال إفريقية في تونس والجزائر والمغرب، ويُذكر أنه أول من أغزى صقلية، فمهّد للعرب المسلمين فتحها بعد ذلك.

ويُذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابي الجليل، الإداري الحازم، أمير البحر وقائد البر معاوية بن حُدَيْج السّكوني[٤].

* * *

(١) أبق: هرب.

(٢) رواه مسلم.

(٣) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٩/٢٤، ٢٥).

(٤) قادة فتح المغرب العربي ص (٨٨، ٨٩).

(٤٣٨) فارس الخلفاء، وابن حواري الرسول ﷺ، ابن أبيه عبدالله بن الزبير بن العوّام الأسدي القرشي[١] رضي الله عنه فاتح مدينة «صبراتة»[٢] و«سوسة»[٣]

أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير بن العوّام بن خُوَيلد بن أسد بن عبدالعزّى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي الأسدي رضي الله عنه الصائل بالحق، القائل بالصدق، المحنَّك بريق النبوة، المُبَجّل لشرف الأمومة والأبوة، المشاهد في القيام، والمواصل للصيام، ذو السيف الصارم والرأي الحازم، مبارز الشجعان، التزق بالنبي لزوقًا، والتصق بالصدّيق لصوقًا، سبط عمة النبي صفيّة وابن أخت زوجته الصدّيقة الوفية.

أبوه حواري رسول الله ﷺ، وأمه ذات النطاقين أسماء بنت الصدّيق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ، وجدّه الصدّيق، وخالته عائشة أم المؤمنين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، وعمة أبيه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد. أمير المؤمنين، أبو بكر، وأبو خبيب الصحابي الجليل أول مولود للمهاجرين بالمدينة. ولد سنة اثنتين، وقيل سنة إحدى عداده في صغار الصحابة، وإنْ كان كبيرًا في العلم، والشرف، والجهاد، والعبادة.

كبرّ المسلمون تكبيرة واحدة حين وُلِد حتى ارتجّت المدينة، وحنّكه النبي ﷺ، وأمر النبي ﷺ أبا بكر، فاذّن في أذنيه بالصلاة.

---

(١) أسد الغابة ت (٢٩٤٩)، والاستيعاب ت (١٥٥٣)، والإصابة ت (٤٧٠٠)، وتاريخ دمشق (٢٨/ ١٣٧) ت (٣٢٩٦)، وسير أعلام النبلاء (٣/٣٨١)، وحلية الأولياء (١/٤٠٥).

(٢) صبراته: مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس الغرب بنحو (٦٧ كيلو مترًا) على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أنشأها الفينيقيون، وهي من أعظم مدن الشمال الإفريقي، وكانت أكبر من طرابلس وأعظم منها عمرانًا ومدنية.

(٣) سوسة: مدينة يحيط بها البحر في جنوبي شرقي تونس.

عن عروة بن الزبير ووزجته فاطمة قالا: «خرجت أسماء بنت أبي بكر، حين هاجرت، وهي حُبلى بعبدالله بن الزبير. فقدمت قُباءً، فنفست بعبدالله بقباء. ثم خرجت حين نُفست إلى رسول الله ﷺ ليحنِّكَه، فأخذه رسول الله ﷺ منها فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة. قال قالت عائشة: فمكثنا ساعة نلتمسها قبل أن نجدها، فمضغها، ثم بصقها في فيه. فإن أول شيء دخل بطنه لَرِيقُ رسول الله ﷺ

ثم قالت أسماء: ثم مسحه وصلّى عليه، وسمّاه عبدالله. ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان، ليبايع رسول الله ﷺ، وأمره بذلك الزبير، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلًا إليه، ثم بايعه»(١).

وقال أبو نعيم الحافظ: «هو أول مولود وُلِد في الإسلام للمهاجرين بالمدينة، فحنّكه رسول الله ﷺ وسمّاه عبدالله، فكبّر الصحابة والمسلمون لمولده استكثارا، وقُتِل بمكة سنة ثلاث وسبعين، فكبرّ فَجرَة أهل الشام لقتله استكبارا، بايع النبي ﷺ وهو ابن ثمان سنين، كان صوّامًا قوّامًا، بالحق قوّالا، وللرحم وصّالا، شديدا على الفجرة، ذليلًا للأتقياء والبررة»(٢).

ولما سمع ابن عمر تكبير أهل الشام حين قتلوا عبدالله بن الزبير قال: الذين كبّروا على مولده خير من الذين كبّروا على قتله»(٣).

قال هشام بن عروة: كان أول ما أفصح به عمي عبدالله بن الزبير وهو صغير: السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان الزبير بن العوّام إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونَنَّ لك منه يوم ويوم وأيام(٤).

لله دره.. أول كلمة ينطق بها: السيف وهو رضيع.. فكيف حال كبار نسوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤٦) في الآداب: باب استحباب تحنيك المولود.
(٢) تاريخ دمشق (١٥٠/٢٨).
(٣) تاريخ دمشق (١٥٥/٢٨).
(٤) المصدر السابق (٢٢٢/٢٨).

السيف أو تناسوْه.. أولا يعرفونه.. فضاعوا وذلّوا.

عن عامر بن عبدالله بن الزبير: سمعت أبي يقول: إنه أتى رسول الله ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ، قال: «يا عبدالله! اذهب بهذا الدم فأهْرِقْهُ حيث لا يراك أحد»، فلما برز عن رسول الله ﷺ عمدَ إلى الدم، فشربه، فلما رجع، قال: «ما صنعتَ بالدم»؟ قال: عمدتُ إلى أخفى موضع علمتُ، فجعلتُه فيه، قال: «لعلّك شربته»؟ قال: نعم. قال: «ولِمَ شربت الدم؟ ويلٌ للناس منك، وويْلٌ لك من الناس».

قال موسى التَّبُوذَكي: فحدَّثت به أبا عاصم، فقال: كانوا يَرونَ أن القوة التي به من ذلك الدم[(١)].

☐ جهاده

عن عثمان بن طلحة قال: كان ابن الزبير لا يُنازع في ثلاثة: شجاعة، ولا عبادة ولا بلاغة[(٢)].

قال الذهبي في «السير» (٣/٣٧٧): «قد كان يُضرب بشجاعته المثل».

شهد عبدالله معركة اليرموك الحاسمة مع أبيه، فلما انهزم الروم يوم اليرموك، جعل يُجهز على جَرْحاهم[(٣)].

وفي البخاري عن عُرْوة، أن الزبير أركب ولده عبدالله يوم اليَرْموك فرسًا وهو ابن عشر سنين، ووكّل به رجلًا[(٤)].

والله إن هذه الحقيقة.. ولكنه أشبه بالأساطير!! غلام ابن عشر سنين يشهد

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده، والحاكم في «المستدرك» (٣/٥٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣٣٠)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/٢٧٢)، وقال: رواه الطبراني والبزار باختصار، ورجال البزار رجال الصحيح، غير هنيد بن القاسم وهو ثقة. ا. هـ ذكره ابن أبي حاتم (٩/١٢١)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقال الذهبي في «السير» (٣/٣٦٦): «ما علمتُ في هنيد جَرْحة».

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٧٠).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٦- ٣٩٧)، وتاريخ دمشق (٢٨/١٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٧/٢٣٤) في المغازي: باب قتل أبي جهل.

غمار معركة ويجهز على الجرحى.. لا تعجب إنه صحابي وإذا أردت أن تعرف سبب ضياع الأمة فانظر إلى مثل هذا.. تناست الأمة الجهاد وازورت عنه. وأقبل غلمان الصحابة عليه.

سارت مُشَرِّقةً وسِرتْ مُغَرِّبًا   شتان بين مشرِّقٍ ومُغَرِّبِ

قال الذهبي: كان فارس قريش في زمانه، وله مواقف مشهودة، قيل: إنه شهد اليرموك وهو مراهق، وفتح المغرب، وغزو القسطنطينية، ويوم الجمل مع خالته[١] قال نوفل البكالي: إني لأجد في كتاب اللَّه المُنزل أن ابن الزبير فارس الخلفاء[٢].

قال ابن عساكر عن ابن الزبير: «حضر معركة اليرموك مع أبيه، وشهد خطبة عمر بالجابية، وقدم دمشق لغزو القسطنطينية أيام معاوية، وبويع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية بمكة، وغلب على الحجاز والعراقين، واليمن، ومصر، وأكثر الشام، ثم قتله الحجاج بن يوسف أيام عبدالملك بن مروان»[٣].

وشهد ابن الزبير فتح مصر، وكان أحد الشهود على وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مصر[٤] وذلك سنة عشرين الهجرية.

● **فتح «صبراته»:**

شهد عبداللَّه بن الزبير مع عمرو بن العاص فتح «ليبيا»، فلما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع إلى (صبراته) لفتحها، وبقي هو في طرابلس للإشراف على أمورها. وأسرعت الخيل بقيادة عبداللَّه بن الزبير، فصبّحوها من ليلتهم على غرّة، فوجدوا أبواب السور مفتوحة وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا، ولم يهرب

---

(١) السير (٣/٣٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٧)، ونوفل البكالي، ابن امرأة كعب الأحبار، لم يوثقه غير ابن حبّان.

(٣) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٨/١٤١). والجابية قرية من أعمال دمشق.

(٤) تاريخ الطبري (٣/١٩٩).

منهم أحدٌ إلا من ركب البحر هاربًا إلى صقلية وهدم المسلمون سورها خوفًا من تحصّن الروم به مرة ثانية، وغنموا كل ما فيها وكان شيئًا كثيرًا، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يخبرونه بما فتح اللَّه عليهم فحضر إلى (صبراته)[١].

● **قتله لجرجير ملك إفريقية.. وكان الفتح على يديه:**

شهد عبداللَّه بن الزبير فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان تحت لواء عبداللَّه بن سعد بن أبي سَرْح، وكان الفتح على يديه[٢].

فقد سيّره عثمان بن عفان مددا لعبداللَّه بن سعد في غزوة إفريقية.

قال ابن الأثير في «أسد الغابة» «وغزا عبداللَّه بن الزبير إفريقية مع عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح، فأتاهم جرجير ملك إفريقية في مئة وعشرين ألفًا، وكان المسلمون في عشرين ألفًا، فسقط في أيديهم، فنظر عبداللَّه فرأى (جرجير) وقد خرج من عسكره، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله، ثم كان الفتح على يده[٣].

● **وقد ذكرنا قصة فتح إفريقية في ترجمة «عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح».. ونذكر هنا ما لم نذكره هناك:**

روى البلاذري عن عبداللَّه بن الزبير، قال: أغزانا عثمان بن عفان أفريقية وكان بها بطريق سلطانه من أطرابلس إلى طنجة، فسار عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح حتى حلّ بعقوبة فقاتله أيامًا فقتله الله، وكنت أنا الذي قتلته، وهرب جيشه فتمزقوا، وبث ابن أبي سرح السرايا ففرقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء أفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى

---

(١) «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» للطاهر أحمد الزاوي ص (٤٢، ٤٣)، و«قادة فتح المغرب العربي» لمحمود شيت خطاب ص (٤٠).

(٢) الإصابة (٨٢/٤).

(٣) أسد الغابة (٢٤٣/٣).

عبداللّٰه بن سعد أن يأخذ منهم ثلاث مئة قنطار من ذهب على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك»(١).

وروى ابن عساكر عن عبداللّٰه بن الزبير قال: هجم علينا جُرْجير في معسكرنا في عشرين ومئة ألف فأحاطوا بنا من كل مكان، وسقط في أيدي المسلمين، ونحن في عشرين ألفًا من المسلمين، واختلف الناس على ابن أبي سرْح، فدخل فسطاطًا له فخلا فيه، ورأيت غرّة من جُرْجير بصرت به خلف عساكره على برذون أشهب، معه جاريتان تظلان(٢) عليه بريش الطواويس بينه وبين جنده أرض بيضاء ليس فيها أحد، فخرجت أطلب ابن أبي سَرْح فقيل قد خلا في فسطاطه، فأتيتُ حاجبه، فأبى أن يأذن لي عليه، فدِرتُ من كسر الفسطاط فدخلتُ عليه، فوجدته مستلقيًا على ظهره، فلما دخلت فزع واستوى جالسًا، فقلت: إيه إيه كلّ أزَبَّ نفور(٣)، فقال: ما أدخلك عليّ يا ابن الزبير؟ قلت: رأيتُ عورةً من العدو، فاخرج فاندب إليّ الناس، قال: وما هي؟ قال: فأخبرته، فخرج معي سريعًا، فقال: أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير، فاخترت ثلاثين فارسًا، وقلت لسائرهم: البثوا على مصافكم، وحملتُ في الوجه الذي رأيت فيه جُرجير، وقلت لأصحابي: احموا لي ظهري، فما كان إلّا أن خرقت الصفّ إليه، فخرجت صامدا له وما يحتسب هو ولا أصحابه إلّا أني رسول إليه حتى دنوتُ منه، فعرف الشرَّ فثنى برْذَونه مُوَلِّيًا، وأدركته فطعنته، فسقط، وسقطت الجاريتان عليه، وأهويت إليه مبادرًا فذففت عليه بالسيف، وأصبت يد إحدى الجاريتين فقطعتها، ثم احتززت رأسه فنصبته في رمحي وكبرّتُ وارفضّ العدو في كل وجه، ومنح اللّٰه المسلمين أكتافهم.

---

(١) «فتوح البلدان» للبلاذري ص (٢٢٨).

(٢) وفي «سير أعلام النبلاء» تظللان عليه.

(٣) الأزب من الإبل الكثير شعر الأذنين والعينين، ولا يكون الأزبّ إلّا نفورا؛ لأنه ينبت على حاجبيه شعرات، فإذا ضربته الريح نفر.

فلما أراد ابن أبي سَرْح أن يوجِّه بشيرًا إلى عثمان قال: أنت أوْلى مَنْ هَاهُنا بذاك، فانطلق يا أمير المؤمنين فأخبره الخبر، فقدمت على عثمان فأخبرته بفتح اللَّه ونصره وصنعه ووصفت له أمرنا كيف كان، فلما فرغت من ذلك قال: هل تستطيع أن تؤدي هذا إلى الناس؟ قال: قلت: وما يمنعني من ذاك؟ قال: فاخرج إلى الناس فأخبرهم، فخرجتُ حتى جئت المنبر، فاستقبلت الناس، فتلقّاني وجه أبي الزبير بن العوام، فدخلتني له هيبة، فعرفها ابي في وجهي فقبض قبضة من حصى وجمع وجهه في وجهي وهمّ أن يحصبني فاعتزمت فتكلّمت، فزعموا أن الزبير لما فرغ من كلامه قال: واللَّه لكأني سمعت كلام أبي بكر الصديق، مَن أراد أن يتزوّج امرأة فلينظر إلى أبيها، وأخيها، فإنها تأتيه بأحدهما. وبُشِّر عبداللَّه بن الزبير مقدمه من إفريقية بابنه خبيب بن عبدالله»[١].

عن عروة بن الزبير أن الزبير قال لابنه عبدالله: أنت أشبه الناس بأبي بكر[٢].

وقاتل ابن الزبير يوم الدار دفاعًا عن عثمان، فجُرِح بضعة عشر جرحًا غائرة، يقول: وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات، فأرجوا أن تكون خير أعمالي»[٣]. وفيه قال عبدالرحمن بن أرطاة الجسري يمدحه ويلوم رجلًا.

فلو كنت مثل ابن الحواري لم ترم وجالدتَ يوم الدار إذْ عظم الخطبُ
ولكن عبداللَّه طاعن دونه وضارب يوم الدار إذ كره الضَّرْب

وتولى حرب (إفريقية) معاوية بن حُدَيْج السّكوني بعد عبداللَّه بن سعد بن أبي سَرْح، فكان ابن الزبير ساعده الأيمن في مهمته الشاقة.

فقد كان ابن الزبير مع ابن حُدَيْج في حروبه، وحين وجهّه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل وفتح «قمُونية»[٤]، بث السرايا

(١) تاريخ دمشق (٢٨/١٨٢).
(٢) الإصابة (٤/٨١).
(٣) تاريخ دمشق (٢٨/١٨٦).
(٤) قمونية: مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان.

في البلاد وبعث عبداللَّه بن الزبير إلى «سُوْسَة» ففتحها، وكان ذلك سنة خمس وأربعين الهجرية(١).

وشارك ابن الزبير في غزو القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان، فشهد حصارها وذلك سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين(٢).

❑ راهب الليل وفارس النهار ابن أبيه:

أخرج الزبير، من طريق مسلم بن عبداللَّه بن عروة بن الزبير، عن أبيه أن النبي ﷺ كلّم في غلمة من قريش ترَعرَعُوا: عبداللَّه بن جعفر، وعبداللَّه بن الزبير، وعمرو بن أبي سلمة، فقيل: لو بايعتهم فتصيبهم بَرَكتك، ويكون لهم ذِكر، فأُتي بهم إليه، فكأنهم تكعكعوا(٣)، فاقتحم عبداللَّه من الزبير أوّلهم، فتبسّم رسول اللَّه ﷺ وقال: «إنه ابن أبيه»(٤).

وفي البخاري عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنه وصف ابن الزبير فقال: عفيف الإسلام، قارئ القرآن، أبوه حواريّ رسول اللَّه ﷺ وأمه بنت الصديق، وجدّته صفية عمة رسول اللَّه ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد(٥) وعن عمرو بن دينار، قال: ما رأيت مصلِّيًا أحسن صلاة من ابن الزبير. وأخرج أبو نعيم بسند صحيح، عن مجاهد: كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود.

وعن ابن أبي مليكة: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام، ثم يصبح اليوم الثامن وهو أليثنا(٦).

وعن أم جعفر بنت النعمان أنها سلّمت على أسماء بنت أبي بكر، وعندها ابن

(١) البيان المغرب (١٧/١).
(٢) تاريخ الطبري (١٧٣/٤).
(٣) أي تقهقروا وتراجعوا.
(٤) الإصابة (٨٠/٤).
(٥) المصدر السابق (٨١/٤).
(٦) الإصابة (٨١/٤). أليثنا: أي أشدنا وأجلدنا، وبه سمى الأسد ليثا.

الزبير، فقالت: قوّام الليل، صوّام النهار، وكان يُسَمَّى حمامة المسجد[١].

«وقال ثابت البناني: كنت أمُرُّ بابن الزبير، وهو خلف المقام يُصلي، كأنه خشبة منصوبة لا تتحرك.

وعن مسلم بن يَنَّاق قال: ركع ابن الزبير يومًا ركعة، فقرأنا بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه.

وعن عمرو بن دينار قال: كان ابن الزبير يُصلي في الحِجْر، والمِنجنيق يَصُبُّ تَوْبَهُ[٢]، فما يلتفت، يعني لما حاصروه.

وعن ابن المنكدر قال: لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن تقصفه الريح، وحَجَرُ المِنجنيق يقع هاهنا[٣].

وعن مجاهد: ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلّفه ابن الزبير، ولقد جاء سَيْلٌ طبّق البيت فطاف سباحة[٤].

برٌّ يبين ما قال الرسول له   من الصلاة لضاحي وجهه علمُ
حمامة من حمام البيت قاطنة   لا تتبع الناس إنْ جاروا وإنْ ظلمُوا[٥]

وعن يحيى بن وثاب: أن ابن الزبير كان إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جِذْم حائط[٦].

وعن ابن أبي مُليكة قال: قال لي عمر بن عبدالعزيز: إن في قلبك من ابن الزبير، قال: قلت: لو رأيته ما رأيت مناجيًا مثله، ولا مصليًا مثله[٧].

---

(١) «حلية الأولياء» (١/٣٣٥).
(٢) التوب: حجر المنجنيق.
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٩).
(٤) السير (٣/٣٧٠).
(٥) تاريخ دمشق (٢٨/١٥٩).
(٦) تاريخ دمشق (٢٨/١٧٠).
(٧) المصدر السابق (٢٨/١٧١).

قال عروة: ما سمعت أمي عائشة وأسماء تدعوان لأحد من الخلق دعاءهما لعبدالله بن الزبير(١).

وعن عبدالرحمن بن القاسم، عن أبيه قال: ما كان أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير(٢).

وعن أبي إسحاق التميمي قال: سمع معاوية رجلًا وهو يقول:

ابن رقاش ماجد سَمَيْدعُ
يأتي فيعطي عن يدٍ أو يمنعُ(٣)

فقال: ذاك عبدالله بن الزبير.

وكان معاوية يلقى ابن الزبير فيقول: مرحبًا بابن عمة رسول الله ﷺ، وابن حواري رسول الله، ويأمر له بمئة ألف(٤).

ودخل عبدالله بن الزبير على معاوية وعنده جماعة فيهم مروان وسعيد بن العاص، فأوسع له معاوية على سريره، فلما انصرف عبدالله بن الزبير أقبل مروان على معاوية فقال له لله درك من رئيس قبيلة يضع الكثير، ولا يُدْنى إلا صغيرا، فقال معاوية: «نفسُ عصامٍ سَوَّدت عصاما»(٥).

قال الإمام مالك: «ابن الزبير كان أفضل من مروان، وكان أولى بالأمر من مروان وابنه»(٦) نعم كان ابن الزبير الصحابي أولى بالخلافة من مروان وابنه. ولقد بقي خليفة تسع سنوات، إذ أن بيعته كانت في سابع رجب سنة أربع وستين

(١) المصدر السابق (١٨٩/٢٨).
(٢) المصدر السابق (١٦٨/٢٨).
(٣) تاريخ دمشق (١٩٣/٢٨).
(٤) السير (٣٦٧/٣).
(٥) تاريخ دمشق (١٩٤/٢٨).
(٦) الاستيعاب (٩١٠/٣).

الهجرية[١]، حجّ بالناس خلالها ثماني حجّات[٢]، وقُتِل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين الهجرية بمكة بعد حصار دام ستة أشهر وسبع عشرة ليلة[٣].

كان ابن الزبير فارس قريش في زمانه غير منازع، وكان فارس الخلفاء غير منازع أيضًا، وكان يشتد بالسيف وهو ابن ثلاث وسبعين كأنه غلام، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول:

كُتِبَ القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

وهو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ القائل: «إنا والله لا نموت حتْفًا ولكن قصْفًا بالرماحِ وموتًا تحت ظلال السيوف».

وكان يحمل على جيش الحجاج من المقاتلين حتى يردّهم إلى أبواب المسجد الحرام وهو يقول:

لو كان قرني واحدًا كفيته أوردته الموت وذكّيته

وكانت جيوش الحجاج تدخل عليه من أبواب المسجد، فكلما دخل عليه قوم من باب حمل عليهم وحده حتى يُخرجهم، فبينما هو على هذه الحال، إذْ جاءته شرفة من شرفات المسجد في رأسه فصرعته وهو يقول:

أسماء يا أسماء لا تبكيني لم يبقَ إلا حَسَبي وديني
وصارم لانت به يميني[٤]

وكان يقول عند قتله:

ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا ولكن على أقدامنا يقطر الدما

رضِي الله عنه لقد كان شديد البأس ذا أنفة، له نفس شريفة وهمة عالية[٥].

---

(١) البداية والنهاية (٣٤٢/٨).
(٢) الاستيعاب (٩٠٧/٣).
(٣) البداية والنهاية (٣٣١/٨)، وفوات الوفيّات (٤٤٧/١).
(٤) فوات الوفيات (٤٤٧/١)، وحلية الأولياء (٣٣٣/١).
(٥) البداية والنهاية (٣٣٥/٨).

وكان شهمًا ذكرا شرسًا[١] في القتال.

لقد كان ابن الزبير أحد شهداء العقيدة والمبدأ.. لقد ذهب ضحية صلابة عقيدته وعلو أهدافه.. إنه من أولئك المؤمنين الصادقين الذين يُقدمون ولا يحجمون، ويصرّحون ولا يوارون ويستقيمون ولا يلتوون.

قال ابن عباس رضي الله عنه لما سُئِل عنه: «كان قارئًا لكتاب الله، متّبعًا لسنة رسول الله ﷺ قانتًا لله، صائمًا في الهواجر من مخافة الله، ابن حواري رسول الله، وأمّه ابنة الصدّيق، وخالته عائشة حبيبة حبيب اللَّه وزوجة رسول الله، فلا يجهل حقّه إلا من عماه الله»[٢].

وابن الزبير هو القائل رضي الله عنه: «واللَّه إِنْ أُبالي إذا وجدت ثلاث مئة يصبرون صبري، لو أجلب عليّ أهل الأرض»[٣].

وقال يوم قتله: «واللَّه لقد مللتُ الحياة، اللهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي، وجاهدت فيك عدوك فأثبني ثواب المجاهدين»[٤].

ودخل رضي الله عنه على أمه حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم إياه. فقال: يا أمه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلّا من ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت أمه: أنت واللَّه يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قُتِل عليه أصحابك، ولا تمكِّنْ مِن رقبتك، فيلعب بك غلمان بني أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت: أهلكت نفسك، وأهلكت مَن قُتِل معك. فقَبّل رأسها، فقال: هذا واللَّه رأيي والذي قمتُ به داعيًا إلى يومي هذا، ما ركنتُ

(١) الاستيعاب (٩٠٦/٣).
(٢) البداية والنهاية (٤٤٥/٨).
(٣) تاريخ دمشق (٢٢٥/٢٨).
(٤) تاريخ دمشق (٢٢٦/٢٨).

إلى الدنيا، ولا أحببتُ البقاء فيها، وما دعاني إلى الخروج إلّا الغضب لله، ولكني أحببتُ أعلم رأيك فزدتني قوة وبصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمّه فإنّي مقتول من يومي هذا، لا يشتد جزعك عليّ، سلمّي لأمرالله، فإن ابنك لم يتعمدّ إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمّد ظلم مسلم، ولا معاهد، ولم يبلغني عن عمالي فرضيته بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي أنت أعلم بي، ولكني أقوله تعزية أمي لتسلو به عني، فقالت له أمه: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدّمتني وإن تقدمتك، ففي نفسي حوجاء حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك، قال: جزاك اللَّه يا أمَّه خيرًا، فلا تدعي الدعاء لي بعد قتلي، قالت: لا أدعه، لست بتاركة ذلك أبدًا، فمن قُتِل على باطل فقد قتلتَ على حق، وخرج وقالت أمه: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبي، اللهم إني سلّمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بما قضيت، فأثبنى في عبداللَّه ثواب الصابرين الشاكرين»[١].

رضِي اللَّه عن ابن الزبير فقد وفّي بقوله:

ولا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

قاتل ابن الزبير حتى قُتل، وحزّ الحجاج رأسه وبعث به إلى عبدالملك بن مروان، وصلب جثته، فقالت أسماء: قاتل اللَّه المبير يحول بيني وبين جثته أن أواريها، ثم ركبت دابّتها حتى وقفت عليه وهو مصلوب، فدعت له طويلًا وما يقطر من عينها قطرة، ثم انصرفت وهي تقول: مَن قُتِل على باطلٍ فقد قُتِلت على حق، وعلى أكرم قتلة ممتنع بسيفك، فلا تبعد».

ومرّ ابن عمر على ابن الزبير بعد صلبه، فوقف عليه وقال: رحمك الله! فإنك ما علمت صوامًا قوامًا وصولا للرحم، وإني لأرجو ألا يعذبك اللَّه عز وجل وقال عنه:

---

(١) المصدر السابق (٢٢٦/٢٨- ٢٢٧).

«يرحمك الله، فوالله إن كنت لصوّامًا قوّامًا»[١].

فرضي الله عن عائذ بيت الله، أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير، فقد كان من أشجع شجعان المسلمين، وكان بطلًا من أعظم أبطالهم، بايعته على الخلافة معظم بلدان المسلمين بعد موت يزيد بن معاوية، وولّى رجاله وعماله على الأقطار، فولّى على المدينة أخاه مصعبًا، وعلى البصرة الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة، وعلى الكوفة عبدالله بن مطيع، وعلى مصر عبدالرحمن بن جَحْدَم الفِهري، وعلى اليمن، وعلى خراسان، وأمّر على الشام الضحّاك بن قيس، فبايع له عامة أهل الشام، وأبت طائفة، والتفّت على مروان بن الحكم[٢].

رفض عائذ بيت الله، ابن الزبير التنازل عن الخلافة بعد مبايعة جمهور الناس، وكان أحق بها من مروان وابنه وقال ﷺ: «والله لضربة بسيف بعز أحبّ إليّ من ضربة سوط في ذل»[٣].

وأقبل على آل الزبير في أيام الحرب بينه وبين الحجاج، فقال: «ليكن أحدكم سيفه وجهه، ولا ينكسر سيفه فيدفع عن نفسه بيده كأنه امرأة. والله ما لقيت زحفًا قط إلا في الرعيل الأول، وما ألمت جرحًا قط إلا أن يكون ألم الدواء»[٤].

وحين خيّره الحجاج بين ثلاث: «إما أن يذهب في الأرض حيث شاء، أو يبعثه إلى الشام مقيدًا بالحديد، أو يقاتل حتى يقتل»، اختار القتال حتى يقتل[٥]!

ويقال: إن الحجاج ورد عليه كتاب عبدالملك بن مروان قبل قتل ابن الزبير: «إعط ابن الزبير الأمان، وحكّمه في الولاية، واستنزله عن الخلافة»، فقال: «لا خلعها إلا الموت»، ثم قال:

---

(١) حلية الأولياء (١/٣٣٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٧٣).

(٣) البداية والنهاية (٨/٣٤٣) وحلية الأولياء (١/٣٣١).

(٤) حلية الأولياء (١/٣٣٢) وانظر البداية والنهاية (٨/٣٤٣).

(٥) البداية والنهاية (٨/٣٤١).

الموت أكرم من إعطاء منقصة إن لم تمُت عَبْطة[١] فالغاية الهرم
إصبر فكل فتى لا بدّ مخترم والموت أسهل مما أمّلت جُشَمُ»[٢]

❑ القائد:

مفتاح قيادة ابن الزبير شجاعته الخارقة وإقدامه النادر.

لقد كان ابن أبيه شجاعة وإقدامًا، بل كان ابن أمه شجاعة وإقدامًا، وهي التي قالت له وقد حاق به الخطر من كل مكان قبيل مقتله: «يا بني لا تقبل منهم خطة عليك فيها الذل، فواللَّه لضربة سيف في عزٍ خير من ضربة سوط في مذلة»[٣].

كان على يد أبيه الزبير نصر المسلمين في معركة (بابليون)[٤] الحاسمة التي فتحت أبواب مصر على مصراعيها للمسلمين، وكان ابن الزبير مع أبيه في فتح مصر، فأفاد من ذلك اليوم أهم درس من دروسه التي طبّقها عمليًا في معارك جهاده.

فقد أيقن الزبير أن حصار حصن (بَابِلْيُون)[٥] سيطول، وأن انتزاعه من الروم سيضع حدًا لمقاومتهم المستميتة ودفاعهم المديد... فاستطلع الزبير مراقي هذا الحصن، ثم أقدم على ارتقائه مع بعض المغاوير الفدائيين، حتى إذا أصبح على شرفاته ـ تَعَالَى ـ صوته وصوت أصحابه: اللَّه أكبر... اللَّه أكبر... فانهارت معنويات الروم، وهاجمهم المسلمون من كل مكان... ثم كان استسلام الروم للعرب المسلمين..

ومضى ابن الزبير على خطة أبيه هذه يعضُّ عليها بالنواجذ: تستطلع منافذ العدو، ويطلّع على عوراته، ثم يُقدم بشجاعة خارقة لوضع حد لمقاومة ذلك العدو.

---

(١) عبطة: الموت في فناء السن وطراوة العمر.
(٢) فوات الوفيات (١/٤٥٠).
(٣) فوات الوفيات (١/٤٤٨).
(٤) بابليون: حصن كان في مكان الفسطاط.
(٥) الولاة والقضاة ص (١٢).

ومن يضع حدًا لمقاومة العدو؛ غير الاستيلاء على حصونه المنيعة التي يحتمي وراء أسوارها؟ كما فعل أبوه الزبير، وغير قتل قائده؟ كما فعل ابن الزبير حين أقدم على قتل (جرجير)، فانفرط عقد المقاومة المعادية، فكان الفتح على يديه.

ولكن المعنويات لها أثر حاسم على النصر، فلا بد من أن يعمل القائد المحنّك على زعزعة معنويات العدو قبل أن يضرب ضربته القاصمة في الوقت والمكان المناسبين، وهذا ما فعله ابن الزبير فعلًا قبل أن يُقدم على قتل (جرجير)، فقد أقنع ابن أبي سرح القائد العام حينذاك أن يأمر مناديه أن ينادي: «من أتاني برأس (جرجير) نفلته مئة ألف وزوّجته ابنته واستعملته على بلاده»، وذلك كردٍّ فعل لمحاولة (جرجير) تحطيم معنويات ابن أبي سرح في إذاعته: «من قتل عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح فله مئة ألف دينار وأزوِّجه ابنتي»، فخاف عبداللَّه بن سعد على نفسه، ولكن (جرجير) صار يخاف أشد من ابن أبي سرح.

ولكن زعزعة معنويات العدو، وقتل قائده على أهميتهما لا يؤديان إلى النصر، ما لم يدعم هذين العاملين الحيويين بخطة دقيقة مدروسة لتكون نتائج المعركة نصرًا مبينًا، لذلك أعدّ ابن الزبير خطّة حكيمة مرنة، وكانت مجمل خطته، مباغتة العدو بقتالهم بعد رجوعهم إلى خيامهم بقوات ضاربة من المسلمين مؤلفة من شجعان المسلمين وعلى رأسهم ابن الزبير.

وبهذه الخطة المرنة باغت ابن الزبير الروم وحلفاءهم بالأسلوب والمكان، فانهارت مقاومتهم.

وربما يتبادر إلى الأذهان السؤال التالي: لماذا فشل ابن الزبير في حرب الحجاج بن يوسف الثقفي؟؟

إن الحجاج انتصر على ابن الزبير، لأن أصحابه كانوا مزودين بالقضايا الإدارية بشكل ممتاز، وكانت موارد الدولة الأموية تحت تصرّفهم، أما أصحاب ابن الزبير فقد شحّت مواردهم الإدارية فغلت الأسعار وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى

ذبح ابن الزبير فرسه وقسّم لحمها في أصحابه[١].

لقد كان في مستودعات ابن الزبير قمح وشعير وذرة وتمر، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده، وكان يحفظ مواد الإعاشة هذه ولا ينفق منها إلا ما يمسك الرمق ويقول: «أنفس أصحابي قوية ما لم يفنَ»[٢] يعني مواد الإعاشة.

ولكن الحصار أجهد أصحاب ابن الزبير[٣]، لأن موادهم الإدارية شحّت، فكان من الطبيعي أن ينتصر الحجاج بعد أن جاع أصحاب ابن الزبير وتردّت حالتهم المعاشية.

إن ابن الزبير كان على حق عندما كان يسيطر على مستودعات تموينه سيطرة تامة، فلا مجال لانتقاد بعض المؤرخين القدامى حرص ابن الزبير على مواد التموين، فقد كان على يقين أن نفادها معناه الاستسلام.

لقد كانت المعركة الدائرة بين الحجاج وبين الزبير معركة إدارية بالدرجة الأولى، ومثل هذه المعركة يكون عامل الوقت دائمًا بصالح الغني على الفقير.

لقد كان انتصار الحجاج في معركته ضد ابن الزبير، لأنه كان صاحب موارد إدارية لا تنضب...

وقد اندحر ابن الزبير، لأن موارده الإدارية كانت محدودة تعتمد على مصادر خارجية تديمها عند الحاجة.

لقد كانت المعركة بين الطرفين غير متكافئة من الناحية الإدارية.

ولست أشك أن ابن الزبير وأصحابه كانوا يعرفون سلفًا أن نتائج المعركة الدائرة لن تكون في صالحهم، فقال له أصحابه: «لو لحقت بموضع كذا!» فقال: «بئس

---

(١) ابن الأثير (١٣٨/٤)، وابن خلدون (٣٨/٣).

(٢) ابن الأثير (١٣٨/٤).

(٣) ابن خلدون (٣٨/٣).

الشيخ أنا إذًا في الإسلام لئن أوقعت قومًا فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم»[١]، فقاتل في معركة يائسة دفاعًا عن دينه وحقه وشرفه وأحسابه، واستقبل مصيره المحتوم صابرًا محتسبًا، وقتل معه مئة وأربعون رجلًا منهم من سال دمه في جوف الكعبة[٢].

لقد كان بحق، فارس قريش، بطلًا شجاعًا[٣]، وكان على صفات حميدة، وقيامه على الإمارة إنما كان لله ﷻ؛ ثم كان الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن الحكم، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت له البيعة في الآفاق وانتظم له الأمر[٤]. وكان عالمًا عابدًا مهيبًا وقورًا كثير الصيام والصلاة، شديد الخشوع جيِّد السياسة[٥].

فلا عجب أن تحبه أم المؤمنين عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ حبًا جمًا، فقد روي عن عروة ابن الزبير قوله: «إن عائشة لم تكن تحب أحدًا بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر مثل حبِّها ابن الزبير، وما رأيت أبي وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير»[٦].

لقد كانت له قابلية على إعطاء القرار السريع الصحيح، شجاعًا مقدامًا فارسًا، ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمَّل المسؤولية بلا تردّد، يعرف مبادئ الحرب، له نفسية لا تتبدّل في حالتي النصر والاندحار، خبيرًا بنفسيات رجاله وقابلياتهم، يثق بجنوده ويحبهم ويبادلونه ثقة بثقة وحبًا بحب، ذا شخصية قوية نافذة، له ماض ناصع مجيد.

---

(١) ابن الأثير (٣/١٣٧)، وابن خلدون (٣/٣٩).
(٢) فوات الوفيات (١/٤٤٩).
(٣) العبر (١/٨٢).
(٤) البداية والنهاية (٨/٣٣٩ـ ٣٤٠).
(٥) البداية والنهاية (٨/٣٣٩).
(٦) البداية والنهاية (٨/٣٣٦).

وكان يحرص على تطبيق أكثر مبادئ الحرب أهمية في حروبه، وقد ظهر عمليًا بوضوح أنه طبّق مبادئ: (إختيار المقصد وإدامته) و(التعرض) و(المباغتة) و(تحشيد القوّة) و(الأمن) و(المرونة) و(التعاون) و(إدامة المعنويات) و(الأمور الإدارية).

لقد كان ابن الزبير قائدًا فذًا.

❑ ابن الزبير في التاريخ:

يذكر التاريخ لابن الزبير، أنه كان الساعد الأيمن لأبيه الزبير في حروبه وخدمته العامة منذ شباب ابن الزبير الباكر حتى قتل الزبير.

ويذكر له أنه كان من أبرز قادة الفتح الإسلامي في إفريقية وأن على يديه كان انتصار المسلمين في معركتهم الفاصلة ضد (جرجير).

ويذكر له شجاعته النادرة وبطولته التي لا تتكرر وإقدامه المدهش.

ويذكر له، أنه صاحب عقيدة راسخة ضحَّى من أجلها بحياته.

رضِي اللَّه عن الصحابي الجليل، التقي الورع؛ الخطيب البليغ، فارس العرب وبطل الإسلام، القائد الفاتح عبداللَّه بن الزبير الأسدي القرشي [١].

* * *

(١) قادة فتح المغرب العربي ص (٨٨- ٩١).

(٤٣٩) بُسْرُ بن أبي أرطاة العامريّ القرشي[١] رضي الله عنه فاتح وَدّان[٢] من ليبيا

هو الأمير أبو عبدالرحمن القرشي العامري الصحابي نزيل دمشق[٣].

هو بسر بن أبي أَرْطأة، وقيل بُسْر بن أرطأة القرشي، واسم أبي أرطأة عمير وقيل عمرو بن عُوَيمر بن عمران بن الحُلَيس بن سيّار بن نزار بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

مختلف في صحبته.

قال مسلم بن الحجاج: له صحبة، وقال أبو بكر الخطيب: أسند عن النبي رواية غير أنها يسيرة.

وقال الدارقطني: له صحبة، ولم يكن له استقامة بعد النبي ﷺ

وقال أبو سعيد بن يونس: من أصحاب رسول اللَّه ﷺ شهد فتح مصر .. فعل بمكة والمدينة واليمن أفعالا قبيحة، وقد ولى البحر لمعاوية ووسوس في آخر أيامه وذكره أبو أحمد العسكري في الصحابة، وقال عبدالغني بن سعيد الحافظ وابن ماكولا: له صحبة[٤]. وقال أهل الشام: سمع من النبي وهو صغير.

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٠٩/٧)، أسد الغابة ت (٤٠٦)، والاستيعاب ت (١٧٥)، والإصابة ت (٦٤٢)، وتاريخ دمشق (١٤٤/١٠) ت (٨٧٢)، وسير أعلام النبلاء (٤٠٩/٣).

(٢)ودّان: مدنية قديمة من مدن البربر الجنوبية، ويتبعها: زلة، وهون، وسكونة، وما جاورها، ويُطلق على الكل: بلاد ودّان، وتقع ودّان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو ٧٦٩كيلو مترا، وإلى جنوبي سرت بنحو ٢٨٠كيلو مترا. وكانت ودّان زمن الفتح الإسلامي هي العاصمة، وكان عليها سور، وقد تهدّم فلم يبق منه إلا آثاره.

(٣)تاريخ دمشق انظر ترجمته ت (٨٧٢) (١٤٤/١٠ وما بعدها).

(٤)صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي والنسائي، والضياء، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٣٩٧).

وفي سنن أبي داود بإسناد مصري قويّ عن جنادة بن أبي أمية قال: كنا مع بُسْر ابن أبي أرطاة في البحر فأتى بسارق فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا تقطع الأيدي في السَّفَر**»[١] وروى ابن حبان في صحيحه عن بُسْر بن أبي أرطاة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها**».

قال أحمد وابن معين: لم يسمع من النبي ﷺ، وقد سبى مسلمات باليمن، فأُقمن للبيع وقال يحيى بن معين: أهل المدينة يُنكرون أن يكون بُسْر بن أبي أرطأه سمع من النبي ﷺ، وأهل الشام يروون عنه عن النبي ﷺ، وقال يحيى: بُسْر بن أبي أرطأة رجل سوء[٢].

وقال الذهبي بعد أن أثبت صحبته في ترجمته له... «كان فارسًا شجاعًا، فاتكًا من أفراد الأبطال وفي صحبته تردّد»[٣].

قال ابن حبان: كان يلي لمعاوية الأعمال، وكان إذا دعا ربما استُجيب له، وله أخبار شهيرة في الفتن لا ينبغي التشاغل بها.

والأكثرون على أن له صحبة فينبغي الكفّ والستر، والإمساك عما شجر بين الصحابة والرأي الأقوى أنه كان صحابيًا لأنه تولى منصب القيادة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانوا لا يؤمّرون في الفتوح غير الصحابة كما قال ابن حجر مرارًا في «**الإصابة**»، وكان عمر بن الخطاب لا يُولّي إلا الصحابة، ولا يرضى أبدًا أن يعمل صحابي بإمرة غير صحابي، وقد عمل جنادة بن أمية وهو صحابي في البحر بإمرة بُسْر، كما عمل غيره من الصحابة بإمرته في غزواته الأخرى.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٤٢٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩١) والبخاري في التاريخ الكبير (٣٠/١)، (١٢٣/٢)، وابن عساكر (٢٢٧/٢)، (٢١٦/٣)، وقال الهيثمي في الزوائد (١٨١/١٠)، رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني ثقات، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١١٦٩) و«السلسلة الضعيفة» رقم (٢٩٠٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤١٠/٣)، وتاريخ دمشق (١٥٦/١٠).

(٣) السير (٤١٠/٣).

❑ جهاده:

شهد بُسر فتح مصر[١]. وهو أَحَدُ من بعثه عمر بن الخطاب مددًا لعمرو بن العاص لفتح مصر، على اختلاف فيه أيضًا، فمن ذكره فيهم قال: كانوا أربعة: الزبير، وعمير بن وهب، وخارجة بن حذافة، وبُسر بن أرطاة، والأكثر يقولون: الزبير والمقداد، وعمير وخارجة، قال أبو عمر: وهو أولى بالصواب[٢].

لمس عمرو بن العاص في بسر شجاعة وإقدامًا وتضحية وفداء وحسن تدبير للحرب، فلما أنجز عمرو فتح طرابلس الغرب وَجّه بُسْرًا إلى (ودّان)، وذلك سنة ثلاث وعشرين الهجرية فصالح أهلها على ثلاث مئة رأس وستين رأسًا من العبيد.

وقال الليث بن سعد: في سنة ثلاث وعشرين غزوة بسر بن أرطأة لُوَبية[٣]، ثم كانت سابور، وغزوة بُسْر «**ودان**» سنة ست وعشرين، وفي سنة ست وأربعين غزوة بُسر وشريك لأذنة[٤].

وكان بسر مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح في جيش العبادلة في غزو إفريقية.

وولّاه معاوية البحر سنة ثلاث وأربعين الهجرية، فغزا الروم وشتًّا بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية ومعه سعد بن عوف. وأنكر ذلك قوم فقالوا: لم يشتِّ بُسر بأرض الروم قط[٥]، وقيل إنه شتًّا بالحمة[٦] من أرض الروم.

وفي سنة أربع وأربعين غزا بسر في البحر[٧].

وفي سنة ست وأربعين الهجرية خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حُديج عقبة بن

---

(١) الإصابة (٤٢٢/١).
(٢) أسد الغابة (٣٧٤/١).
(٣) لوبية: مدينة بين الإسكندرية وبرقة.
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٤٨/١٠).
(٥) الطبري (١٣٧/٤)، والعبر (٥١/١)، والبداية والنهاية (٢٤/٨).
(٦) الحمة: تدعى حمة ما كسين في ديار ربيعة.
(٧) الطبري (١٦١/٤)، والبداية والنهاية (٢٧/٨).

نافع الفهري ومعه بُسْر وشريك بن سُميّ المرادي، فأقبل حتى نزل بـ(مغداش)(١) من (سُرْت)(٢)، وكان بُسر توجه إليها سنة ست وعشرين الهجرية من (سرت) فأدركه الشتاء، فسار عقبة إلى (ودّان) واستعاد فتحها ثانية.

وفي سنة خمسين الهجرية غزا بسر الروم(٣)، كما غزاهم صيفًا سنة إحدى وخمسين الهجرية(٤)، كما غزا الروم شتاء سنة اثنتين وخمسين الهجرية(٥)، وقد فتح مدينة (مجانة)(٦) بافريقية، وهي تسمى (قلعة بسر) بينها وبين القيروان خمس مراحل.

❑ القائد:

ياله من شجاع مقدام.. وحكايته مع الروم من أعجب الحكايات تطرب لها مسامع كل فدائي مجاهد:

لقد كان بُسر على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام، وكان من أُسُود العرب، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بعد فتح مصر «أن أفرض لمن شهد بيعة الحديبية ـ أو قال بيعة الرضوان ـ مئتي دينار وأتمها لنفسك لإمرتك، وأتمّها لخارجة بن حذافة لضيافته ولبُسر بن أرطاة لشجاعته» وفي رواية عن يزيد بن حبيب أن عُمر جعل عمرو بن العاص في مئتين لأنه أمير، وعمير بن وهب الجمحي لأنه يصبر على الصيف، وبُسر بن أرطاة في مئتين لأنه صاحب سيف وقال: «ربّ

(١) مغداش: بلد قريب من «سرت» في طرابلس الغرب من ليبيا.

(٢) سرت: مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى باسمها الآن، وتبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو أربعة كيلو مترات، وتقع إلى الجنوب من طرابلس بنحو ٥٥٤ كيلو متر.

(٣) تاريخ الطبري (١٧٤/٤).

(٤) تاريخ الطبري (١٧٨/٤).

(٥) الطبري (٢١٤/٤)، والبداية والنهاية (٥٨/٨).

(٦) مجانة: بلد بإفريقية (تونس) وهي تُسمَّى قلعة بُسر، وبها زعفران كثير ومعادن وحديد وفضة، بينها وبين القيروان خمس مراحل.

فتح قد فتحه اللَّه على يديْه»[١] .

وكانت له نكاية عظيمة في الروم[٢] «غزا بُسر الروم فجعلت ساقته لا يزال يُصاب منها طَرَف، فجعل يلتمس أن يصيب الذين يلتمسون عورة ساقته فيكمن لهم الكمين، فجعلت بعوثه تلك لا تصيب ولا تظفر، فلما رأى ذلك تخلّف في مئة من جيشه، ثم جعل يتأخر حتى تخلّف وحده، فبينا هو يسير في بعض أودية الروم إذْ رُفع إلى قرية ذات جوز كثير، وإذا براذين مُربَّطة بالجوز ثلاثين برذونًا، والكنيسة إلى جانبهم فيها فرسان تلك البراذين الذين كانوا يعقبونه في ساقته فنزل عن فرسه فربطه مع تلك البراذين، ثم مضى حتى أتى الكنيسة فدخلها، ثم أغلق عليه وعليهم بابها، فجعلت الروم تعجب من إغلاقه وهو وحده، فما اشتغلوا إلى رماحهم حتى صرع ثلاثة، وفقده أصحابه فلاموا أنفسهم فقالوا: إنكم لأهل أن تُجعلوا مثلًا للناس، إن أميركم خرج معكم فضيّعتموه حتى هلك، ولم يهلك منكم أحد، فبينا هم يسيرون في الوادي حتى أتوْا مرابط تلك البراذين، فإذا فرسه مربوط معها، فعرفوه، وسمعوا الجلبة في الكنيسة فأتوها، فإذا بابها مغلق، فبلغوا طائفة من سقفها، فنزلوا عليها وهو ممسك طائفة من أمعائه بيده اليسرى، والسيف بيده اليمنى، فلما تمكّن أصحابه في الكنيسة سقط بُسْر مغشيًّا عليه، فأقبلوا على مَنْ كان بقي فأسروه وقبلوا[٣] ، فأقبلت عليهم الأسارى فقالوا: ننشدكم اللَّه من هذا الذي دخل علينا، قالوا: بسر بن أرطأة، قالوا: ما ولدت النساء مثله، فعمدوا إلى معاه فردّوه في جوفه، ولم يخرق منه شيء، ثم عصبوه بعمائمهم وحملوه على شقّه الذي ليست به جراح، حتى أتوا به العسكر، فخاطوه، فسلم وعوفي»[٤] .

ذلك هو مبلغ شجاعة بُسر إقدامه، وذلك هو الذي حدا بعمر بن الخطاب

(١) «الولاة والقضاة» ص (٢١).

(٢) تاريخ دمشق (١٠/١٥١).

(٣) قبلوا: أي أقبلوا انظر لسان العرب.

(٤) تاريخ دمشق (١٠/١٤٩- ١٥٠).

الذي لم يجامل أحدًا في العطاء حتى ولو كان ابنه عبدالله، أن يفرض مئتين من الدنانير سنويًا لبسر لشجاعته، فكان عطاؤه مساويًا لعطاء أمير مصر عمرو بن العاص، ولعطاء من شهد بيعة الرضوان سواءً بسواء. وكان يرعى رجاله رعاية نادرة ويساويهم بنفسه في كل شيء: ـ فقد «كان بُسْر بن أرطأة على شاتية بأرض الروم، فوافق يوم الأضحى، فالتمسوا الضحايا فلم يجدوها، فقام في الناس يوم الأضحى، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنا قد التمسنا الضحايا اليوم والتمسوها، فلم نقدر منها على شيء، وكانت معه نجيبة لم تشرب لبنها لقُوح ـ ولم نجد شيئًا نضحِّي به إلّا هذه النجيبة؛ فأنا مُضَحٍّ بها عني وعنكم فإن الإمام أب ووالد ثم قام فنحرها، ثم قال اللهم تقبّل من بُسْر ومن يليه، ثم قسموا لحمها بين الأجناد، حتى صادر له منها جزء من الأجزاء مع الناس[١]».

قائد هذا شأنه: ـ يرعى رجاله حقَّ الرعاية، ويستأثر دونهم بالخطر، ويحرص على أرواحهم، ويستغفر لهم قبل أن تزلّ أقدامهم ـ لا بدّ أن يكون موضع ثقة رجاله، ولا بد أن يكون محبوبًا عندهم أثيرًا لديهم.

إن مفتاح مزايا قيادة بُسر هو ما يتمتع به من شجاعة خارقة وإقدام عجيب، ولكن ذلك ليس كافيًا لتسنُّمه منصب القيادة في أيام عمر بن الخطاب، فقد كان يريد من القائد أن يكون مكيثًا لا يتهور، عالمًا بإدارة الحرب، لذلك ولّاه عمر بن الخطاب قيادة جيش من جيوش المسلمين في أيامه، ولذلك أيضًا اعتمد عليه معاوية بن أبي سفيان في أيامه، فكان أحد قوّاد معاوية وأكابر أصحابه[٢].

لقد كان بُسر قائدًا ممتازًا، وكان فارسًا شجاعًا فاتكًا من أفراد الأبطال.

وسيذكر التاريخ لبُسْر فتحه لمنطقة (ودّان) من ليبيا ونشره الإسلام بين قبائل البربر الساكنة في ربوعها. ويذكر له أنه كان من أبطال المسلمين المعدودين.

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٠/١٥٠).

(٢) جمهرة أنساب العرب ص (١٧٠).

أمّا ما قيل عنه وقصة مقتله طفلين صغيرين هما عبدالرحمن وقثم بن عبدالله بن عباس، وسبيه لنساء مسلمات وهو صحابي، فأما عن قصة قتل الطفلين، فإن قتل الأطفال يأباه العربي في الجاهلية فكيف يفعله الصحابي، وتعاليم الإسلام صريحة في عدم قتل الأطفال، وأما اتهامه بأنه سبى النساء العربيات المسلمات، فأمر لا يُصَدَّق أبدا، فكيف يمكن أن نصدِّق أن صحابيًا يسبى النساء المسلمات؟؟؟! لقد كان بسر من رجالات العرب المعروفين بشجاعتهم، منذ عهد عمر بن الخطاب، وقوله: «ما كنت لأوذي أبا موسى الأشعري! ما أغرقني بحقه وفضله!»[1] دليل على التزامه بالمثل الإسلامية وحرصه على احترامها وتطبيقها. ومن الغريب أن يذكر قصة قتل الطفلين الصغيرين وتذكر بعض المصادر أنه «**كان إذا دعا ربما استُجيب له**»[2] فكيف يستقيم هذا التناقض؟!

إن كتب التاريخ بحاجة إلى تمحيص شديد والله المستعان. ورحم الله ورضي عن القائد الفاتح الشجاع البطل بُسْر بن أرطأة.

* * *

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٢٣).

(٢) الإصابة (١/٤٢٢).

(٤٤٠) القائد الشهيد
زُهَيْر بن قيس البَلَوِيّ(١)
فاتح منطقة مدينة تونس(٢).. وهازم البربر في معركة «ممس» الحاسمة

هو زُهَيْر بنّ قيس أبو شدّاد البَلَويّ المصري. قال ابن عساكر: قيل إن له صحبة(٣) حدّث عن علقمة بن رَمثةَ البلوي. قال ابن مندة: «**علقمة بن رِمْثة البلوي، كان ممن بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وروى عنه زهير بن قيس البَلَوي، وهو من الصحابة**»(٤). وقال أبو عبدالله بن مندة، قال أبو سعيد بن يونس: زهير بن قيس البلوي، يكنى أبا شدّاد له صحبة، شهد فتح مصر، يروى عن علقمة بن رِمثة البلوي، روى عنه سويد بن قيس التُجيبي قتلته الروم ببرقة في سنة ست وسبعين(٥).

قد نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول ﷺ، فقد كان صغيرًا على عهد النبي ﷺ.

❑ **جهاده:**

ـ شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص، وغزا (إفريقية) ووليها(٦)،

---

(١) أسد الغابة ت (١٧٨٣)، والإصابة (٤٧٨/٢) ت (٢٧٤٨)، وتاريخ دمشق (١١٢/١٩) ت (٢٢٨٩). البَلوِي نسبة إلى بَلِي على وزن علي، من قُضاعة، انظر: أنساب العرب ص (٤٧٩)، ومن بطون قضاعة بلي بن عمرو بن مالك بن إلحاق بن مالك بن قضاعة.

(٢) تُونُس: مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم عمرت من أنقاض قرطاجنة، وكان اسم تونس في القديم ترشيش، وهي على ميلينْ من قرطاجنة.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١١٢/١٩).

(٤) المصدر السابق (١١٣/١٩).

(٥) المصدر السابق (١١٤/١٩).

(٦) رياض النفوس (٦٠/١).

وفي سنة اثنتين وستين الهجرية ردّ يزيد بن معاوية عُقبة بن نافع الفهري إلى (إفريقية)(١) فاستخلف على (القيروان) زهيرًا(٢) وترك معه جندًا تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة.

ـ ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في (تَهُوْذَة)(٣) سنة ثلاث وستين الهجرية(٤) (٦٨٣م) قصد (كسيلة بن لَمْزَم القيروانَ في جمع كثير من الروم والبربر؛ فعزم زهير على القتال، فخالفه حَنَش الصنعاني وعاد(٥)، إلى مصر فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العودة معهم، فسار إلى (بَرْقَة)(٦) وأقام بها(٧).

وقد زحف كسيلة البرنسي إلى القيروان سنة أربع وستين الهجرية وانتزعها من يد المسلمين في المحرم(٨)، فعظم البلاء على المسلمين، فقام زهير بن قيس خطيبًا في الناس، فقال: «يا معشر المسلمين! إن أصحابكم قد دخلوا الجنّة، وقد من الله عليهم بالشهادة؛ فاسلكوا سبيلهم يفتح لكم دون ذلك»؛ فقال حنش الصنعاني: «لا والله، ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه

---

(١) رياض النفوس (٢٢/١)، والاستقصا (٧٢/١).

(٢) ابن الأثير (٤٣/٤)، وفي رياض النفوس (٢٢/١) أنه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي.

(٣) تهوذه: اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تُعرف بهم.

(٤) البداية والنهاية (٢١٧/٨).

(٥) حنش الصنعاني: هو حنش بن عبدالله بن عمرو بن حنظلة غزا المغرب والأندلس وسكن إفريقية، وعداده في المصريين.
وهو تابعي كبير ثقه. غزا الأندلس مع موسى بن نصير، وهو أول من ولي عشور إفريقية في الإسلام. كان رحمه الله إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصباح وقرّب المصحف وإناء فيه ماء، فكان إذا وجد النعاس استنشق بالماء، وإذا تعايا في آية نظر في المصحف. مات سنة مئة الهجرية.
في رواية أن أبا المهاجر دينار بعث حنش الصنعاني إلىجزيرة شريك في إفريقية فافتتحها.

(٦) برْقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين اسكندرية وإفريقية (تونس).

(٧) ابن الأثير (٤٣/٤).

(٨) الاستقصا (١٧/١).

العصابة من المسلمين إلى مشرقهم»، ثم قال: «**يا معشر المسلمين! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني**»، فأتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته؛ فنهض في أثره ولحق بقصره بـ(برقة)، فأقام بها مرابطًا إلى دولة عبدالملك بن مروان. وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره، فلما قرب من (القيروان) خرج من كان فيها من العرب هاربين، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم، فأمّن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرًا على سائر إفريقية والمغرب كله وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن ولي الخلافة عبدالملك بن مروان[١]. ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميرًا على البربر ومن بقي بها من العرب. واضطرم المغرب نارًا، وفشت الردة في البربر، إلى أن استقلّ عبدالملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق، فالتفت إلى المغرب[٢] ليصفي حسابه هناك.

وفي رواية، أن زهيرًا خليفة عقبة في القيروان، لما بلغه ما جرى على عقبة، رعب رعبًا شديدًا، وأراد الإنصراف إلى مصر، فمنعه أحد أصحابه[٣] وقال: «لا تفعل، فإنها هزيمة إلى مصر»، ثم برز للعدو فكان أول من برز فضرب خباءه، فلما رأى زهير عزمه، عزم معه، وكان معه ستة آلاف رجل: ألفان من البربر، وأربعة آلاف من العرب. وزحف زهير إلى كسيلة وقاتله قتالًا شديدًا، فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه ما لا يحصى وتفرقوا[٤].

والظاهر أن الرواية الأولى هي أصح الروايات، إذ لم يكن بمقدور العرب المسلمين وهم قليلون مقاومة كسيلة بعد أن اجتمع عليه الروم والبربر، وبعد أن

---

(١) الاستقصاء (١٨/١): وقد ورد في الاستقصا (٧٥/١) في خطاب زهير: «.. فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم».
(٢) الاستقصا (٧٥/١).
(٣) منعه ابن حيان الحضرمي. انظر رياض النفوس (٢٨/١).
(٤) رياض النفوس (٢٨/١- ٢٩).

ارتفعت معنوياتهم نتيجة لانتصارهم على عقبة بن نافع في (تهوذة) واستشهاده واستشهاد زهاء ثلاث مئة رجل من أصحابه معه، خاصة وأن الرجال الذي كانوا مع زهير في القيروان على قلتهم، لم يكونوا من المحاربين الممتازين، إذ ليس هناك قائد يمكن أن يستغني عن خمسة آلاف أو ستة آلاف ويبقيهم في الخلف وهم من محاربي الدرجة الأولى؛ بل إن القادة يتركون في الخلف وراءهم محاربي الدرجة الثانية من كبار السن، أو ذوي العاهات أو من غير الشجعان... إلخ، ومثل هذا الجيش لا يستطيع صدّ جيش لجب (قوي) كجيش كسيلة يتمتع بمعنويات عالية فائقة.

لذلك انسحب زهير من القيروان إلى (برقة)، وكان قراره هذا صحيحًا من الناحية العسكرية، لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لإحراز النصر، يؤدي إلى كارثة عسكرية تحل بجيشه دون مبرر ولا جدوى.

٣- ولما استقلّ عبدالملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتن الداخلية كان زهير مرابطًا في (برقة) منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري [١]، فذُكر عند عبدالملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم [٢] من يد (كسيلة) وأن يُعزَّ الإسلام بها كما كان في أيام عقبة، فقال لهم عبدالملك: «**من للأمر مثل عقبة؟**»، فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير، وكان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين؛ فوجّه إليه عبدالملك، وأمره بالخروج على أعنّة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية، فسرّ ذلك زهيرًا وسارع إلى الجهاد [٣].

ولكن زهيرًا كتب إلى عبدالملك يعلمه بكثرة الروم والبربر [٤]، وبقلة من معه

---

(١) الاستقصا (١/٨١).

(٢) الكامل لابن الأثير (٤/٤٣).

(٣) رياض النفوس (١/٢٩).

(٤) الاستقصا (١/٨١).

من الرجال والأموال، فأرسل عبدالملك إلى أشراف العرب ليخشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر؛ فسارع الناس إلى الجهاد، واجتمع منهم خلق عظيم، فأمرهم أن يلحقوا بزهير؛ فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى (إفريقية). فلما دنا من (القيروان) نزل بقرية يقال لها (قَلْشَانَة)(١) وذلك في سنة تسع وستين الهجرية، فبلغ ذلك كسيلة - وكان في خلق عظيم من الروم والبربر، فدعا كبارهم وأشرافهم، وشاورهم وقال لهم: «أرى أن ننزل بـ(مَمِسْ)(٢) لئلا يركبنا مَنْ بالقيروان فنهلك(٣)، ولأن بالقيروان خلقًا كثيرًا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونخاف إن قاتلنا زهيرًا أن يثب هؤلاء وراءنا، فإذا نزلنا (ممس) أمناهم وقاتلنا زهيرًا، فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى (طرابلس) وقطعنا أثرهم من إفريقية، وإن ظفروا بنا تعلّقنا بالجبال ونجونا(٤). كما أن الماء بـ(ممس) كثير، فأجابوه إلى ذلك. ورحل إلى (ممس) فبلغ ذلك زهيرًا، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح(٥).

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس(٦) وسائر البربر ولقيه بـ(ممس) من نواحي القيروان. وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار، فأمر الناس بالنزول؛ فلما أصبح زحف إليه. وأقبل كسيلة ومن معه، فالتحم الفريقان، ونزل الضر وكثر القتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة، ولم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل. ومضى الناس في

---

(١) وردت في رياض النفوس (١/ ٣٠): قرشانة، ووردت في معجم البلدان (١٤٧/٧) قلشانة، وهي مدينة بافريقية بضواحي القيروان. انظر: معجم البلدان (١٤٧/٧) وهامش رياض النفوس (١/ ٣٠).

(٢) وقد وردت في ابن الأثير (٤٣/٤): ممش وهي في الهضبة في الجنوب الشرقي لجبال أوراس في الجزائر الآن.

(٣) رياض النفوس (١/ ٣٠) وفي ابن خلدون (١٨٧/٤): أن زهير أزحف سنة سبع وستين.

(٤) ابن الأثير (٤/ ٤٣- ٤٤).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٤٤)، ورياض النفوس (١/ ٣٠). والبيان المغرب (١/ ٢٠).

(٦) البرانس: قبيلة من البربر.

طلب البربر والروم، فلحقوا كثيرًا منهم وقتلوهم، وجدّوا في طلبهم إلى وادي (مَلَوِيّة) واد بـ(طنجة) بالمغرب، وفتح (شِقبّنَارِية) (١) وقلاعًا أُخَر (٢)، وفتح مدينة (تُونس) (٣)، وفي هذه الوقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم (٤)، وقتل رجال البربر والروم ملوكهم وأشرافهم (٥)، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجأوا إلى الحصون والقلاع (٦) واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر (٧)، وخاف البربر من زهير والعرب خوفًا شديدًا، وكسرت شوكة (أوربة) (٨) من بينهم، واستقرّ جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة (وَلِيْلى) وكانت فيما بين (فاس) و(مكناسة) بجانب جبل (زَرْهُون)، ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر (٩).

لقد كانت معركة (ممس) معركة حاسمة حقًا، فقد قضى زهير على مقاومة البرانس، فكان هذا القضاء عظيم الأثر في مستقبل الفتوح؛ لأن بُتر (١٠) البربر كانوا إلبًا مع العرب أنصارًا لهم لانتشار الإسلام فيهم، وأن البرانس من البربر حملوا لواء المقاومة يمدّهم الروم بالعون؛ فكانت ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم في الاستعانة بأهل البلاد على العرب (١١).

٤- وعاد زهير إلى (القيروان)، فرأي بإفريقية ملكًا عظيمًا، فأبى أن يقيم بها وقال: «إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك»، وكان من

---

(١) هي مدينة Sicca Vaneria الرومانية القديمة، وتسمى الآن: الكف.

(٢) رياض النفوس (١/٣٠) وانظر ابن الأثير (٤/٤٤) والبيان المغرب (١/٢٠) والاستقصا (١/٨١).

(٣) البلاذري (٢٣١).

(٤) الاستقصا (١/٨١).

(٥) ابن الأثير (٤/٤٤).

(٦) البيان المغرب (١/٢٠).

(٧) الاستقصا (١/٨١) وقد وردت كلمة الفرنجة بديلا من كلمة الاسلام.

(٨) قبيلة من قبائل البربر.

(٩) الاستقصا (١/٨١).

(١٠) قبيلة من البربر.

(١١) فتح العرب للمغرب ص (٢٣٠).

رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين؛ فترك القيروان آمنة، وانصرف عنها، وأقام بها كثير من أصحابه[١].

ترك القيروان آمنة، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة، ورحل في جمع كثير إلى مصر، فبلغ الروم خروجه من (إفريقية) إلى (برقة)، فأمكنهم ما يريدون، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة[٢] من القسطنطينية وجزيرة صقلية[٣]، فأغاروا على برقة وأصابوا بها سبيًا كثيرًا، وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم عسكر زهير، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعًا بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم. وأشرف على الروم، فإذا هم في خلق عظيم، فلم يقدر على الرجوع، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا، والروم يدخلونهم المراكب؛ فنادى بأصحابه: «النزول»، فنزلوا، وكان أكثرهم من التابعين، ونزل الروم إليهم، وتلقّوهم بعدد عظيم، فالتحم القتال وتكاثرت عليهم الروم، فقتل زهير وأشراف من كانوا معه من العرب[٤]، ولم ينج منهم أحد؛ وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية[٥].

وفي رواية، أن الروم بالقسطنطينية عندما بلغهم مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة، اغتنموا خلوّها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية، وأغاروا على برقة، فأصابوا منها سبيًا كثيرًا، وقتلوا ونهبوا، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة، فأخبر الخبر، فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم. ورحل هو ومن معه، وكان الروم خلقًا كثيرًا، فلما رآه المسلمون استغاثوا به، فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال، فاشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيرًا وأصحابه، ولم ينج منهم أحد، فعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية[٦].

---

(١) ابن الأثير (٤٤/٤)، والبيان المغرب (٢٠/١) والاستقصا (٨١/١)، ورياض النفوس (٣١/١).
(٢) اليان المغرب (٢١/١).
(٣) ابن الأثير (٤٤/٤).
(٤) البيان المغرب (٢١/١).
(٥)، (٦) ابن الأثير (٤٤/٤).

ونحن جديرون أن نتأمل قليلًا هاتين الروايتين: الأولى أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من إفريقية إلى برقة، والثانية أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من برقة إلى إفريقية.

والفرق بين الروايتين كبير جدًا من الناحية العسكرية، فالرواية الأولى، تدل على أن الروم استهدفوا من حملتهم جيش زهير بالدرجة الأولى، لذلك جرى إنزالهم في برقة لا في الموانى الإفريقية الأخرى وهي على طريق عودته من القيروان إلى مصر، لأجل سحق جيش زهير وهو الهدف السوقي (الاستراتيجي) الحيوي في الحرب، لأن القضاء على الجيش معناه انتهاء كل مقاومة معادية.

ومما يدل على أن خطة الروم كانت ترمي إلى القضاء على جيش زهير بالدرجة الأولى، هو تحشيد جيش ضخم من القسطنطينية ومن صقلية في آن واحد وتوقيت إنزاله في برقة في وقت معين محدّد هو موعد وصول جيش زهير إلى تلك المنطقة، ولو كانت نيّات الروم مجرّد غارة لما بذلوا كلَّ هذه الاستعدادات الضخمة في إعداد الخطط الموقوتة وتحشيد الجيوش الكبيرة، ولما أجروا إنزالهم في وقت وصول طلائع جيش زهير إلى برقة أو قبله.

أما الرواية الثانية، فتدل على أن خطة الروم كانت غارة لجمع الغنائم والأسلاب، وهذه الغارة لا تحتاج إلى تلك الاستعدادات الدقيقة الموقوتة وتحشيد الجيوش الضخمة.

فمن الواضح إذًا، أن الروم أجروا إنزالهم في برقة ـ مع كل ما ذكرنا من ضخامة الجيوش وضخامة الاستعدادات ـ للقضاء على جيش زهير ليفوّتوا عليه فرصة نجاحه الكبير في معركة (ممس) وليستعيدوا سلطتهم الكاملة على (إفريقية)؛ لذلك فإن الرواية الأولى هي المقبولة، لأنها تتفق مع الواقع الذي جرى فعلًا، ولأن سير الحوادث يؤيدها من كل الوجوه.

لقد شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى، لأن العرب المسلمين

كانوا إذ ذاك يحاصرون القسطنطينية حصارهم الأول الذي بدأ سنة ثمان وأربعين الهجرية واستمر إلى ما بعد سنة خمسين الهجرية، ولبثت الدولة الرومانية بضعة أعوام بعد ذلك تقاسي عقابيل هذه المحنة التي كادت تودي بها، فلم يعد إليها الهدوء الذي يسمح لها بالاهتمام بولاياتها إلا بعد سنة خمس وخمسين الهجرية[١]؛ إذ نشط الروم بعدها نشاطًا مفاجئًا ترجع أسبابه إلى إسترجاع الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع وإصلاحه الديني واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في (إفريقية) وغيرها[٢]، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة استطاع فيها الروم أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم إستعدادًا لصراع حاسم[٣].

فلماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعًا لغير سبب ظاهر بعد انتصاره في (ممس)؟ إن تعليل المراجع لذلك بقولها: إنه خشي الفتنة على نفسه، وكان من العباد المخبتين، فقال: «إنما جئت للجهاد في سبيل الله، وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا فأهلك»[٤].. إلخ تعليل ضعيف، لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويراطب في دار الحرب، فإذا فضّل على ذلك العودة إلى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلًا على الورع أو بدافعه، بل دليل أمور أخرى وبدافعها[٥]. فما أسباب عودته مسرعًا؟ الظاهر أن السبب الحقيقي هو وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة، لذلك سارع إلى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولًا، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الاسلامية ثانيًا؛ خاصة أنه يعرف أن منطقة برقة كانت حينذاك منطقة

(١) فتح العرب للمغرب (١٥٩).
(٢) فتح العرب للمغرب (٢١٣).
(٣) فتح العرب للمغرب (٢١٥).
(٤) الاستقصا (١/٨١).
(٥) فتح العرب للمغرب (٢٢٧).

مكشوفة تقريبًا، لعدم تيسر قوات إسلامية كافية فيها تحميها من غارات الروم بجبوش ضخمة عليها، وليس معنى ذلك أن تلك المنطقة كانت محرومة تمامًا من مدافعين عنها، إذ أن ذلك لا يمكن أن يحدث مطلقًا من الناحية العسكرية فلا بدّ أن يكون فيها عدد مناسب من الرجال لحمايتها من الغارات المحدودة أو من قوات قليلة معادية وذلك بمشاغلتهم مدة من الزمن حتى تردهم النجدات والإمداد، إذ لا يمكن أن يترك أي قائد أية منطقة على خطوط مواصلاته دون حماية كافية، ولكن القوة التي تركها في برقة لا ترقى أن تكون كافية في صد جيوش كبيرة، وهذا ليس خطأ زهير بتاتًا، إذ ليس بإمكانه أن يزرع رجاله بأعداد كبيرة ليكوّنوا حاميات على طول خطوط مواصلاته التي تمتد إلى قرابة ألفي ميل، وليس هناك قوة كافية لهذا الغرض، فلم يكن له إلا أن يترك حاميات صغيرة في النقاط السوقية (الاستراتيجية) المهمة لحمايتها من قوات معادية محدودة ولفترة محدودة من الزمن.

ولكن المعلومات التي وردت عليه عن حشود الروم الضخمة باتجاه منطقة برقة، جعلته يقرّر فورًا العودة أدراجه إلى تلك المنطقة لمواجهتها بقواته الضاربة، وفعلًا وصل إلى تلك المنطقة في الوقت المناسب، ولكنه دُحر أمام الروم لأن قواته لم تكن كافية في إحراز الظفر عليها، بالرغم من إقدام زهير وإقدام رجاله على مقاتلة الروم بشجاعة وتضحية وفداء.

وهكذا سقط زهير وكثير من رجاله شهداء في ساحة الوغي، لأن القوتين العربية والرومية لم تكونا متكافئتين، ولأن العرب كانوا مجهدين من سفرهم الشاق الطويل آلاف الأميال، ولأن الوقت المتيسر لزهير لم يكن كافيًا في إعداد الخطة العسكرية الدقيقة لمقاومة الغزو ولتلقّي الإمداد من المشرق، فاندفع زهير ودفع قواته بمثل تلك الظروف بحوافز عاطفية لتخليص الأسرى المسلمين من أيدي الروم، فوقعت الكارثة بزهير ورجاله، فخسروا كل شيء... إلا الشرف... ولم يكن بإمكانهم ولا بإمكان أي قائد آخر في مثل تلك الظروف والأحوال، أن يفعل

غير ما فعله زهير وأصحابه فيلاقي نفس المصير الذي لاقوه.

❑ الإنسان:

كان زهير صحابيًا ولكننا لا نعلم عن أيامه الأولى شيئًا كثيرًا، وكان ممن لزم عمرو بن العاص ودخل معه دمشق. وفي سنة أربع وستين الهجرية كان زهير بمصر فبعثه أميرها[١] إلى (أيْلَة)[٢] ليمنع عبدالعزيز بن مروان من المسير إليها، وكان زهير حينذاك إلى جانب عبدالله بن الزبير على بني أمية، فهُزم زهير ومن معه أمام عبدالعزيز بن مروان[٣]. ولعلّ هذا الحادث ترك أثره في نفس عبدالعزيز بن مروان على زهير، فقد ندب عبدالعزيز زهيرًا إلى (برقة) وكان عبدالعزيز أميرًا على مصر، فخاطب زهيرًا بشيء، فأجابه زهير: «أتقول هذا لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا؟»[٤].

كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين[٥] صاحب فضل ودين[٦]، وكان من العباد المخبتين[٧]، وكان من العلماء المتفقهين.

شهد فتح مصر سنة عشرين الهجرية كما أسلفنا، فاذا كان عمره يوم شهد فتح مصر زهاء عشرين عامًا، واستشهد سنة إحدى وسبعين الهجرية[٨] (٦٩٠م) فليس من المعقول أن يكون عمره حينذاك أكثر من إحدى وسبعين سنة، وإلا ما استطاع قيادة الجيوش ومعاناة أمور الحرب وتحمل أعبائها. لذلك كان من المحتمل أن يكون

---

(١) كان أميرها حينذاك عبدالرحمن بن عتبة بن إياس الفهري. انظر الولاة والقضاة (٤١) وهو المعروف بابن جحدم.

(٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام.

(٣) الولاة والقضاة (٤٣).

(٤) الاصابة (٤٧٨/٢)، وانظر تهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥).

(٥) رياض النفوس (٢٩/١).

(٦) البيان المغرب (٢١/١).

(٧) الاستقصا (٨١/١).

(٨) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٨٥) نقلا عن المؤنس.

زهير قد ولد في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢م)، وقد دفن بـ(دَرْنَة)[١] قريبًا من الشاطئ الذي استشهد فيه، وقبره وقبور الشهداء الذين سقطوا معه معروفة هناك[٢].

وقد ورد في بعض المصادر أنه استشهد سنة ست وسبعين الهجرية[٣]، مع أن خليفته حسان بن النعمان تولى إفريقية سنة أربع وسبعين الهجرية[٤]، فلا بدّ أن حسان بن النعمان تولاها بعد استشهاد زهير لا قبله!

كما ورد في بعض المصادر، أن زهيرًا قُتِلَ سنة تسع وستين الهجرية[٥]، وهذا مرجوح أيضًا، لأنه ليس من المعقول أن يتولى زهير إفريقية وهو بـ(برقة) في هذه السنة، ثم يُعِدّ جيشه ويتلقى الإمداد ويسير إلى (القيروان) ويقاتل هناك ويطارد العدو، ثم يعود أدراجه من القيروان إلى (برقة) بعد مكوثه في (القيروان) ردحًا من الزمن، ويتم كل ذلك خلال سنة واحدة!!

ولما سمع عبدالملك بن مروان بقتل زهير، عظم عليه واشتد[٦]، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة بن نافع قبله[٧] لمكانة زهير السامية في نفوس العرب المسلمين.

لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح: شجاعة وبطولة وإيمانًا وورعًا.

وقد ورد عند ابن عساكر قصة له مع عبدالعزيز بن مروان بن الحكم فقال فيما يرويه بسنده عن ابن يونس: «قتلته الروم ببرقة في سنة ست وسبعين، وكان سبب قتله أن الصريخ أتى الفسطاط بنزول الروم على برقة، فأمر عبدالعزيز بن مروان

(١) درنة: مدينة في ليبيا على ساحل البحر شرقي بنغازي.
(٢) معجم البلدان (٤/٥٥).
(٣) الإصابة (٢/٤٧٨)، ومعجم البلدان (٤/٥٥).
(٤) ابن الأثير (٤/١٤٣).
(٥) الكامل لابن الأثير (٤/١٤٣).
(٦) ابن الأثير (٤/٤٤).
(٧) البيان المغرب (١/٢١)، ورياض النفوس (١/٣١).

بالنهوض إليهم... وفيها، فقال له عبدالعزيز: إنك يا زهير جلف جافي، فقال له زهير: يا ابن أبي ليلى أتقول لرجل جمع ما أنزل اللَّه على نبيه ﷺ قبل أن يجمعه أبواك جلف جافي هو ذا أمر، فلا ردّني اللَّه إليك، ومضى زهير على البريد في أربعين رجلًا، فلقي الروم فأراد أن يكفّ حتى يلحقه الناس، فقال له فتى حدث كان معه: جئتَ يا أبا شدّاد، فقال: قتلتنا وقتلت نفسك، ثم خرج بهم فصادف العدو ثم قرأ «**السجدة**» فسجد وسجد أصحابه، ثم نهض فقاتلوا فقُتِلوا أجمعون ما شذّ منهم رجل عن رجل»(١).

❑ القائد:

نشأ زهير في بيئة خالصة تتسم بالشجاعة والإقدام، وترعرع في أيام الجهاد الأولى وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي، وما كاد يشبّ إلا وانخرط في سلك المجاهدين الفاتحين، فشهد فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص، ثم شهد فتوح إفريقية ووليها أيضًا.

وحين أصبحت مصر بلدًا إسلاميًا وبدأ الفاتحون يتوغلون غربًا في إفريقية، كان زهير مع أولئك الفاتحين. وفي سنة ست وأربعين الهجرية كان زهير في جيش عقبة بن نافع، فاستخلفه عقبة على جيشه بـ(مغداش)(٢) وسار بنفسه بمن خف معه لفتح (وَدّان)(٣)، ثم عاد عقبة إلى عسكره بعد خمسة أشهر(٤). وفي سنة اثنتين وستين الهجرية استخلفه عقبة على (القيروان) حين يمّم شطر المغرب الأقصى إلى المحيط الأطلسي(٥) كما مرّ بنا ذلك.

---

(١) تاريخ دمشق (١٩/١١٤- ١١٥).

(٢) مغداش: مدينة قريبة من «سرت» في طرابلس.

(٣) «ودان»: مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٧٦٩كيلو متر.

(٤) انظر: التفاصيل في فتوح مصر والمغرب ص (٢٦٢- ٢٦٤).

(٥) ابن الأثير (٤/٤٣- ٤٤).

لقد كان زهير من أقرب المقرّبين إلى عقبة وكان ساعده الأيمن في حروبه وغزواته، فلا عجب أن تجمع آراء ذوي الرأي من المسلمين على اختياره خلفًا لعقبة في فتوح (إفريقية)[١] وأخذ ثارات شهداء (تهوذّة): عقبة وأصحابه، واستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من كسيلة المتغلب عليها[٢].

هذه التجربة لزهير في إدارة الحروب ومعاناتها، أفادت المسلمين عندما أصبح قائدًا لجيش إفريقية، فخاض معركة حاسمة في (ممس): ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم وقتل رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجأوا إلى الحصون والقلاع، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر، وخاف البربر من زهير والعرب خوفًا شديدًا، وكسرت شوكة قبيلة (أوربة) القوية المتنفذة في إفريقية كما ذكرنا سابقًا.

وكان قرار زهير الخاص بمطاردة البربر بعد معركة (ممس) قرارًا صائبًا جدًا يدعو إلى التقدير والإعجاب، ولولا تلك المطاردة التي كانت بتماس شديد بالبربر لاستطاع البربر التسلل إلى الجبال والتخلص من الخسائر الفادحة التي لحقت بقواتهم؛ وكان من نتائج تلك المطاردة الموفقة تفويت الفرصة على البربر للتملص من المعركة الخاسرة إلى الجبال، وهم الذين تركوا القيروان إلى (ممس) ليسهل عليهم الإفلات من العرب المسلمين في حالة دحرهم وذلك باللجوء إلى الجبال المحيطة بالمنطقة لتقليل خسائرهم في الأرواح والمواد.

كما كان قرار زهير في البقاء خارج (القيروان) وعدم دخولها. قرارًا صائبًا حقًا، لأن دخول المدينة يؤدي إلى بعثرة قوات المسلمين للدفاع عنها، وبذلك تنقلب خطتهم الهجومية على جيش كسيلة إلى خطة دفاعية، والهجوم وحده لا الدفاع هو الذي يؤدي إلى إحراز الظفر.

---

(١) البيان المغرب (٢٩/١).
(٢) الاستقصا (٨١/١).

أما استعداداته لإنجاز استحضارات جيشه عَدَدًا وعُدَدًا، فقد بلغت حدّ الروعة: أمره عبدالملك بن مروان بالخروج على أعنّة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية، فكتب إلى عبدالملك يخبره بقلة من معه من الرجال والاموال، فأرسل عبدالملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر[١]، وبذلك طبّق زهير مبدئي (التحشد) و(الأمور الإدارية) على أحسن وجه.

ولكن زهيرًا أخطأ في اصطدامه مع قوات الروم في منطقة (برقة) دون أن يتخذ كل الاجراءات اللازمة لضمان نجاح هذا الاصطدام، فمن الوضح أنه اصطدم مع الروم وهو بقوات قليلة هي قواته المتقدمة الخفيفة؛ فقد عدل هو إلى الساحل في خيل يسيرة[٢]، فوجد أسطول الروم من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين؛ فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه، فصمد إليهم فيمن معه وقاتل الروم حتى قتل، وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه[٣]، فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع، وباشر القتال[٤]... وهذا يدل على أن الفرسان الذين معه كانوا قليلي العدد، وأنهم جماعة متقدمة واجبها الاستطلاع فقط لا القتال؛ ولكنه أنشب القتال خضوعًا لموجة عاطفية عارمة تورّط بتأثيرها هو وأصحابه في قتال غير متوقع في وقت ومكان غير مُناسبين، وكان عليه أن يكبح جماع عاطفته، إذ ليس في إعداد الخطط العسكرية مجال للأمور العاطفية، ويجمع رجاله كافة ويستفيد من كل مقاتل متيسّر، ويُعدّ الخطة للقتال، ويهيئ الأمور الإدارية لقواته، ثم يختار هو الوقت والمكان المناسبين لمهاجمة الروم... عند ذاك تكون فرص نجاحه متهيئة، ويكون قد أعدّ كل متطلبات القتال قبل نشوبه.

وعلى كل، فإن العاطفة الدينية المتأججة حينذاك، ورؤية الرجال والأطفال

---

(١) رياض النفوس (٢٩/١).

(٢) معالم الإيمان (٥٤/١)، وفي رياض النفوس (٣١/١) أنه عدل إلى الساحل بقوات كثيرة.

(٣) الاستقصا (٨١/١).

(٤) ابن الأثير (٤٤/٤).

والنساء أسرى يقادون قسرًا إلى سفن الروم أدى إلى تحمّس رجاله وإقدامهم دون تدبّر وتقدير إلى مهاجمة الروم دون خطة مناسبة ولا قوات كافية، وذلك مما أدى إلى تورّط قواته وتورّطه هو نفسه في معركة خاسرة دفع هو ورجاله حياتهم الغالية ثمنًا لها.

وربما يتبادر إلى الأذهان، السؤال الآتي: كيف نوفِّق بين معرفة زهير بوجود قوات الروم في تلك المنطقة، وكان ذلك من أهم أسباب عودته من (القيروان) إلى (برقة)، وبين إقدامه على التقدم إلى تلك القوات على رأس ثلة من الفرسان فيتورّط في معركة خاسرة؟ ولماذا لم يتدخل القسم الأكبر من جيشه في تلك المعركة في أثناء نشوبها لإنقاذ زهير وفرسانه؟ ولماذا لم يأخذ ذلك الجيش بثأره - في الأقل - بعد استشهاده واستشهاد فرسانه معه؟؟

وأبادر إلى الجواب، بأن مثل هذا السؤال قد يتبادر إلى غير العسكريين، أما العسكريون الذين خاضوا غمار الحروب واصطلوا بنارها، فيقدِّرون أن ما حدث أمر طبيعي جدًا بسبب ظروف الحرب غير الإعتيادية التي قد تفلت أحيانًا من أيدي قادتها فتسير وتتطوّر على غير ما يشتهون.

وإلى أولئك الذين يتبادر إلى أذهانهم مثل هذا السؤال من المدنيين، وإلى العسكريين النظريين غير المجرّبين، أسوق هذا الجواب.

لست أشك أن حامية منطقة (برقة) التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العدو، ولحماية خطوط مواصلاته، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتمّ بالحصول على المعلومات عن نيّات العدو المتربص بها، فلا بد أن يكون لها مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر والروم: دوريات استطلاعية بريّة وبحرية، ومراكب تمخر عباب البحر، وعيون وأرصاد في مختلف الأماكن والأصقاع. بل إذا حصل كل عربي مسلم وكل مسلم مسؤولًا كان أو غير مسؤول على معلومات مفيدة عن العدو، فإنه يرى نفسه

مسؤولًا عند اللَّه وعقيدته وقومه عن إيصال تلك المعلومات إلى المسؤولين بأسرع وقت وبأسرع وسيلة.

هذه الحامية الساهرة لمصالح المسلمين المرابطة دفاعًا عن أرواحهم وأرضهم وكرامتهم وعزّتهم، أنذرت زهيرًا ـ على اعتباره المسؤول الأول عن إفريقية ـ بتحركات الروم من القسطنطينية ومن صقلية، وقد تكون هذه المعلومات ـ خاصة عن تحركات الروم من القسطنطينية ـ وصلت إليها من المشرق أو حصلت عليها بوسائلها الخاصة أو حصل عليها زهير بوسائله الخاصة، فعاد زهير بقواته الضاربة لحماية منطقة برقة المهدّدة بقوات الروم؛ ثم تقدّم زهير على رأس قطعاته الراكبة التي حرص على قيادتها بنفسه ـ وهذا من مميزات القائد الممتاز، إذ يكون دائمًا في الأمام قريبًا من مواطن الخطر ـ تقدم بنفسه لاستطلاع مواضع إنزال الروم، ومعرفة قوتهم وتسليحهم، وذلك لإعداد الخطة المناسبة لمقاومتهم، ولكنه ـ على ما يظهر ـ فوجئ بالمسلمين يقادون قسرًا وهم أسرى إلى مراكب الروم، فاستغاث به هؤلاء، فتورطت جماعة من رجاله خضوعًا لعاطفتهم المتأججة في الاشتباك مع الروم دون خطة مدبرة ولا استعداد مسبّق لخوض المعركة، فكانت الكارثة التي لحقت بزهير وبفرسانه الأبطال.

أما لماذا لم ينجدهم رجالهم الذين يتقدّمون باتجاه العدو. فمن المحتمل أن يكونوا بعيدين عن ساحة المعركة، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا بعيدين ولكنهم وصلوا إلى ساحة المعركة بعد فوات الوقت المناسب، ففت استشهاد قائدهم في أعضادهم، فأصبحوا بغير قيادة، وانهارت معنوياتهم، ولا قيمة لجيش بغير قيادة ولا معنويات.

ومن المعلوم أن المعارك الحربية في العصور القديمة قبل اختراع البارود وقبل اختراع الأسلحة الحديثة، يتقرّر مصيرها خلال ساعات قليلة، وقد يكون استشهاد القائد وحده هو العامل المهم في الهزيمة.

ترى! هل نلقى اللوّوم كله على زهير في تورّطه بالاشتباك بالروم دون استعداد كاف وفي وقت ومكان غير مناسبين؟!

إن ظروف الحرب ظروف غير اعتيادية، وشتان ما بين من يجلس إلى مكتبه ليدرس معركة من المعارك فيقرّر وهو آمن مستريح: هذا صحيح وهذا خطأ، وهذا أصاب وهذا أخطأ؛ وبين من يعاني ويلات الحرب ويصطلي بنارها.

إن سير الحوادث في الحرب قد يكون تيارًا عارمًا يجرف القائد دون إرادة منه ويجرف من معه من الرجال.

هكذا كانت خاتمة حياة زهير، إذ استشهد استشهادًا لا يقلّ روعة وجلالًا عن استشهاد عقبة بن نافع الفهري، فأثار مصرعه ثائرة العرب المسلمين، وحفّزهم إلى مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه. وقد كان لمقتله على يد الروم أثر عظيم في مسير الفتوح، إذ كان زهير قد حسب ـ بعد قتله كسيلة ـ أن كل مقاومة للبلاد قد خمدت، وأن البلاد أصبحت آمنة مطمئنة، فكان مقتل زهير منبهًا للعرب إلى ما ينجم عن ترك الروم من خطر، وإلى ما يمكن أن يسبّبوه للعرب من المتاعب إذا تركوا في مدائن الساحل يستعيدون ما ضاع من قوتهم، ويستمدون العون من بيزنطة نفسها. وكما كان مصرع عقبة محددًا لمهمة زهير، كان مقتل زهير محددًا لمهمة حسان بن النعمان ـ من بعده ـ فأنفق ما قدر عليه من جهد في القضاء على الروم، حتى تمكن من ذلك تمامًا[1].

وهكذا كانت حياة زهير الغالية بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة؛ وكانت خاتمة حياته المشرّفة، بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة.

لقد كان من نتائج استشهاده تكامل الفتح الإسلامي في إفريقية، فأصبحت

---

(١) فتح العرب للمغرب ص (٢٢٩ـ ٢٣٠).

تلك البلاد إسلامية كما هو الحال في مصر وأرض الشام والعراق وغيرها من البلاد، وأصبح الفتح الإسلامي في إفريقية فتحًا مستدامًا كما هو الحال في تلك الأقطار.

لقد كان زهير مجاهدًا قائدًا، يتَّسم بكل ما يتسم به المؤمن المجاهد من مزايا التضحية والفداء من أجل إعلاء كلمة اللّٰه وهو كما قال: «**إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا**»[1]، ولعلّ إيمانه العميق بالجهاد حبب إليه الاستشهاد وجعله يستأثر بالخطر دون أصحابه، فيكون دائمًا قريبًا من مواطن الخطر طلبًا لما عند اللّٰه من أجر للشهداء، وكان يحب رجاله ويحبونه ويثق بهم ويثقون به لما كان يتمتع به من ماض مجيد في الجهاد. وكان ذا تجربة طويلة عملية للحروب، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده، فكان مجاهدًا من المهد إلى اللحد كما يقولون. وكان في حروبه يطبِّق مبدأ (التحشد) ومبدأ (التعرض) ومبدأ (الأمور الإدارية)، فكانت استعداداته للقتال ممتازة حقًّا.

لقد كان من أولئك الذي نذروا أنفسهم لعقيدتهم، فسقط أخيرًا في ساحات القتال دون أن يسقط السيف من يده.

❏ **زهير في التاريخ:**

يذكر التاريخ لزهير استنقاذه القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها.

ويذكر له، أنه كان نعم المطالب بدم عقبة بن نافع الفهري، وهو الذي أخذ ثأر عقبة من قاتله كسيلة، فهو الذي قتل كسيلة وقتل عددًا ضخمًا من رجاله وفرسانه ورجال حلفائه الروم وفرسانهم.

ويذكر له أنه انتصر في معركة حاسمة على البربر في «**ممس**» ففزع منه أهل

---

(١) رياض النفوس (١/٣٠).

إفريقية واشتد خوفهم فلجأوا إلى الحصون والقلاع.

ويذكر له، أنه ضحى بنفسه من أجل عقيدته ولم يضح بعقيدته من أجل نفسه.

رضِي اللَّه عن الصحابي الجليل، التقي النقي، المؤمن الورع، البطل الشهيد، القائد الفاتح زهير بن قيس البَلَوِي[١].

* * *

(١) قادة فتح المغرب العربي لمحمود شيت خطّاب.

(٤٤١) رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري النجاري[(١)] رضي الله عنه فاتح جزيرة جَرْبة[(٢)] من تونس

هو الصحابي رُوَيفع بن ثابت بن السكن بن عديّ بن حارثة، من بني مالك بن النجار يُعَدُّ في المصريين، نال شرف الصحبة والجهاد مع رسول اللَّه ﷺ، فقد جاهد تحت لواء النبي ﷺ في غزوة حُنين كما سيأتي أو غزوة خيبر وما بعدها من المشاهد كما في أسد الغابة.

قال الليث بن سعد: في سنة ست وأربعين أمّر معاوية رويفع بن ثابت على طرابلس مدينة بالمغرب، فغزا منها إفريقية سنة سبع وأربعين[(٣)].

❑ جهاده:

كانت أرض الشام ميدان جهاد رويفع، وسار تحت لواء عمرو بن العاص لفتح مصر وليبيا والنوبة، كما شهد معارك الفتوح التي خاضها عبداللَّه بن أبي سرح لفتح إفريقية ومعاوية بن حُدَيْج السُّكوني لفتح المغرب.

وفي سنة خمس وأربعين الهجرية[(٤)] غزا معاوية بن حُدَيْج السكوني المغرب فاستعاد فتح طرابلس وكان معه في جهاده رويفع بن ثابت. وترك معاوية رويفع بن ثابت واليًا عليها سنة ست وأربعين الهجرية[(٥)] فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها

---

(١) أسد الغابة ت (١٧١٧)، والاستيعاب ت (٧٩٠)، والإصابة ت (٢٧٠٥).

(٢) جَرْبة: جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية (تونس) قرب قابس، كان يسكنها البربر. انظر: معجم البلدان (٣/٧٣- ٧٤).

(٣) أسد الغابة (٢/٢٩٨).

(٤) رياض النفوس (١/١٧)، والبيان المغرب (١/١٧)، والاستقصا (١/٦٩).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٩٢)، والإصابة (٢/٤١٦)، وأسد الغابة (٢/٢٩٨).

سنة سبع وأربعين الهجرية[١]، وفتح جزيرة «**جربة**» التي كان يسكنها البربر، ثم انصرف من عامه إلى طرابلس مقر عمله.

قال ابن البرقي: توفي ببرقة وهو أمير عليها. وقال ابن يونس: مات سنة ست وخمسين، وهو أمير عليها من قِبل مَسلمة بن مخلد[٢]. وقبره مشهور في الجبل الأخضر ببرقة[٣] في مدينة «**البيضاء**»[٤] وهو آخر من توفى من الصحابة هناك[٥].

❑ **الإنسان:**

كان رويفع صاحبيًا جليلًا لم يشارك في الفتنة بين علي ومعاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بسيفه أو بلسانه، وبقى مستقرًا بمصر حتى انقشعت الغمة وعادت الوحدة بين المسلمين.

ولقد كان رضي الله عنه من أصحاب الفتيا من الصحابة[٦]، وروى عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث منها ما رواه عنه حنش الصنعاني.

عن حنش الصنعاني عن رويفع بن ثابت الأنصاري، قال: قام فينا خطيبًا، قال: أما إني لا أقول لكم إلّا ما سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول يوم حنين، قال: «**لا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يَسقي ماءَهُ زرعَ غيره**» - يعني إتيان الحُبالى - «**ولا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يبيع مَغْنمًا حتى يُقسم، ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا**

---

(١) الاستيعاب (٢/٥٠٤)، وأسد الغابة (٢/٢٩٨)، وشذرات الذهب (١/٥٥).
(٢) الإصابة (٢/٤١٧).
(٣) الأعلام للزركلي (٣/٦٥).
(٤) البيضاء: مدينة في ليبيا تقع بين بني غازي ودرنة. المسافة بينها وبين بني غازي ٢٠٠كم، وبينها وبين درنة ١٠٠كم.
(٥) تهذيب الأسماء واللغات.
(٦) أصحاب الفتيا من الصحابة - ملحق بجوامع السيرة مع السيرة لابن حزم ص (٢٨٦).

أعجفها رَدّها فيه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس ثوبًا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه ردّ فيه[(١)]».

وفي «**أسد الغابة**» عن حنش الصنعاني قال: غزونا مع رويفع بن ثابت المغرب، فافتتح قرية يُقال لها «**جربة**». فقام خطيبًا فقال: لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر.

❑ القائد:

بذل رُوَيْفِع قصارى جهده مجاهدًا في سبيل الله في ميادين أرض الشام ومصر والمغرب العربي.

وقد شهد معارك كثيرة بريّة وبحريّة، فقد سار بجيشه بحرًا إلى جزيرة «**جربة**» وفتحها، وقضى على فساد أهلها، ونشر فيهم الدين الحنيف، وضمهم إلى البربر المسلمين.

وكان شجاعًا مقدامًا كامل العقل طويل التجربة، مأمون النقيبة، بصيرًا بتدبير الحرب ومواضعها، حسن التعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، حسن السيرة عفيفًا صارمًا حذِرًا متيقّظًا سخيًا.. لقد كان قائدًا ممتازًا.

يذكر التاريخ لرويفع أنه قضى حياته كلها مجاهدًا وإداريًا، ورافق أعلام الفتح الإسلاميّ من مبدأ سيرها إلى أرض الشام من المدينة المنورة، إلى نهاية مستقرها في المغرب العربي.

ويُذكر أنه من الدعاة الأوائل الذين نشروا الإسلام في أرض الشام ومصر والمغرب عامة، وفي البربر خاصة.

ويذكر له أنه فتح قرية جربة، ومات بعيدًا عن أهله فاستقرت نفسه مطمئنة في

(١) حسن: رواه أبو داود في السنن (٦٥٤/١) كتاب النكاح باب في وطء السبايا حديث رقم (٢١٥٨)، وأحمد في المسند (١٠٨/٤)، (٣٨٥/٦)، وابن عساكر (٣٠/٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (١٨٩٠، ١٨٩١).

سفوج الجبل الأخضر من أرض ليبيا في برقة حيث لا يزال أهلها يذكرونه بالتقدير والإكبار.

إنه نسى نفسه من أجل عقيدته والمصلحة العامة العليا، فذكره الناس في أيامه ولا يزالون.

رضِي اللَّه عن الصحابي الجليل، الإداريّ الحازم، التقى النقيّ، الفارس البطل، القائد الفاتح رُوَيفع بن ثابت الأنصاري النجاري[١].

* * *

(١) قادة فتح المغرب العربي ص (١٥٥- ١٥٦).